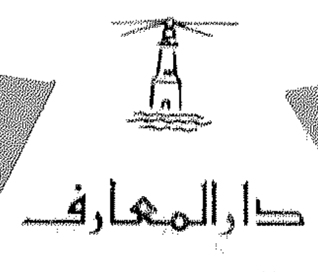
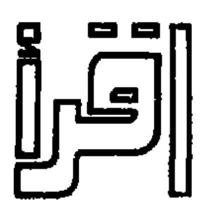


فوزية مهران

اجعل لي آية



دار المعارف



[٥٧١]

رب اجعل لي آية

فوزية مهران

رب اجعل لي آية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

رب اجعل لى آيـة

١ - مقدمة ﴿رب اجعل لى آية﴾
٢ - ﴿ن والقلم ومايسطرون﴾
٣ - مــوزون
٤ - الواســع العليم
٥ - البــكاء الجميــل
٦ - الضحك الجميــل
٧ - حـلم الملك
٨ - الأحلام حرية ووسع
٩ - الرقم المدهش «٣»

مقـدمة

رب اجعل لى آية

هذا غد يعود

تتبدى خيوط النور

– هذا خلق جديد –

اغتنم الصبح الوليد ويولد عمرى من جديد.

– سبحان فالق الإصباح –

رب زدنى علمًا

ياواهب الحياة وياجاعل آية النهار مبصرة.

– رب اجعل لى آية –

(وأشعر أنى جديدة.. أحس بسعة فى عقلى وقلبى والمكان..)

أذوب مع دفعة النور الأولى.. تصبح نفسى متاحة.. تتصعد فوق سلم النغم تسبح فى عباب مشع.. أركن إلى مرفأ أمان وسكون..

– أسمع صوت نفسى من داخلى ﴿رب اجعل لى آية﴾–

أبدأ عملى ويومى ورحلة اليوم الجديد بالتلاوة..

اقـــرأ . .

كانت البدء دائمًا . . نلج بها عالم النضارة والبراءة والعلم المنير.

- ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾

اقرأ . . هى النغمة الأولى التى وعيتها . . نقشت علىٰ صدرى ووعيى وبأعينى . .

هى الحركة الرئيسية فى بداية يومنا . . بها تتداعى إلىّ الصور والمعانى والذكريات (وصوت أبى فى الفجر يرتل القرآن).

وتدب الحركة والحياة فى بيتنا الصغير . . أقوم على شوق وحب لبداية يوم جديد تتفتح قوى النفس للعلم والقراءة.

- تلك الحـروف الباهـرة . . تضمنا . . تحبنـا . . توسـع لنـا رزقنـا وقوتنا . . تيسر عملنا . . وتصلح بالنا . . تلفنا بضياء ودفـء وسعة . .

ومن اقرأ تتعلم أن تمسك بالقلم . .

﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ و﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ٤، ٥).

هبة ونعمة من الله - الحياة - نبدأ بـالعلم . . وما أجمـل ما تكـون الحياة . . نقرأ . . حركة التدريب والأداء الأولى . . نقرأ فى الكون فى كل مظاهر الخلق . . والآيات من حولنا . .

كان الرسول ﷺ - المصطفى . . يقرأ فى الكهف ويتعبد . . ويطيل التأمل والتفكير . . وكان متوافقا وطبيعيا تماما مع فطرته السليمة الصادقة أن تكون أول كلمة يأتيه الوحى بها ﴿اقرأ﴾.

النبى الأمى ﷺ لم يكن بقارئ. . ولكنه اليوم ناطقٌ ويقرأ للناس آيات بينات ويتنزل عليه - الدين الحق - وتتفتح بين أيدينا المعجزة. .

(كان من الطبيعى أن تتوحد لدينا القراءة والكتابة - اقرأ بداية العلم والمعرفة وهذا القلم ومايسطر من نور).

ويعلمنا الله. . أن نقرأ باسمه تعالى. . وأن نرد كل الأشياء إليه سبحانه. . ذلك هو العلم المنير حقًا. . نقرأ فى سنة خلقه وحكمة إتقانه وبديع صنعه. . حركة أدائنا الأولى تكون بذكره. . نبحث وندقق وندرس ونتعلم وبذلك تكون لنا معيشة طيبة. . وأعمالا صالحة. . وحياة فائقة وميراثا لديه عظيما.

هو خلق سبحانه. . وعلم - وعلم بالقلم -

ميزان العلم. . القراءة والكتابة، ندون ما وعينا من فكر واكتشاف وحكمة. .

نتركها بين أيدى أحبائنا ومن يأتون من بعدنا. .

الإسلام دين الحق، ويعلمنا الله أنه أنزل «الكتاب» بالحق والميزان.

بدأ قرآنه المجيد سبحانه باقرأ، وبعد آيات قصار «ثلاث» ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أمر حاسم قائم. . أمر حب وتوحد ورفعة وعزة.

وبيان الوسيلة «القلم» أروع مهنة. . وحركة وأداء. . أن نعلم بالقلم. . وأن ننقل العلم لكل الناس عن طريق هذا المداد «اللدنى» ليسكن فى قلوب الناس وبسمعهم وبأعينهم وصدورهم وبذلك تصح حركتهم وجهادهم وعزمهم وتتألق أعمالهم.

وكان حقا علينا أن تتوحد لدينا «اقرأ. . وعلم بالقلم. .

ومايسطرون» تلك هى رموز حياتنا ومركز الحركة ونقط الارتكاز فى رحلة أيامنا. .

(سقيا دائمة وارتواء وتتنزل الكلمات بردًا وسلامًا فى مواجهة الصعاب والألم والتعب) نرد كل شيء إلى الله ونتعلم القياس. . والحساب والأسماء ونتصل بأسباب المعرفة. - نصنع على عينه - ونصوغ أنفسنا من جديد. . ونقيم الكلمات. . نحيا بها ونواصل السعى والجهاد. .

- وكل يوم فى كشف جديد. .

تتفتح الكلمة من داخلها. . تومض بالمعنى. . والاشارة البارقة. . تجعل ما كان ساكنا متحركا.

(أحس أنى ممتلئة كتابة. . تأتينى الرغبة فى التعبير واحتضان فكر جديد) أنطلق مع رؤى تنفث حياة. . وتقطر بالحب. . وتستبق لفعل الخيرات. . وتصطف الحروف والكلمات. . أقدمها هدية. . لعيون واعية. . وأسماع مبصرة.

(تعودت أن أعبر عن نفسى بالكتابة. . وتعلمت أن الكتابة عهد وموثق)

هكذا علمنا الكتاب المبين. .

﴿كتب الله﴾ تعبير ربانى يخاطبنا به العزيز القدير. . وعد يصوغه على نفسه. . ويرفعنا به درجات. . ويجعل بيننا وبينه رباطًا وموثقًا.

والآيات محيطة بنا. . فى أنفسنا وفى الآفاق، فيها جمال ودفء وطاقة متجددة. .

﴿رب اجعل لى آية﴾

ترنيمة محبة وقربى.. دعاء نصعده ونحن نسعى ونجاهد. إن زكريا الرسول.. فى لحظة واعدة مواتية.. يجد عند مريم رزقًا.. وتكشف العذراء البتول عن بصيرة نافذة وتعلم أن الله يمدنا برزقه ورحمته ويقف معنا يسمع ويرى.. ويعيننا على المواقف ولحظات المواجهة.. وينبتنا نباتًا حسنًا بجميل آياته وعظيم صفاته..

ودعا زكريا ربه.. أسلم له وجهه ووضع أغلى أمانيه.. وكامن حلمه ورغبته.. يريد أن يكون له «ولد».. فات الوقت وعبر الأوان ولكن الله القادر قريب ويستجيب ويخلق لنا دائمًا آية..

فى عمق النداء والدعاء جاءته البشرى.. استجاب الله..

كرر الدعاء والهتاف.. وآية للآية.. ليثبت فؤاده.. أراد أن يعرف كيف يخرج على أهله ويزف لهم البشرى.. ومتى يخبر الناس.. وغمره - الواسع العليم - بفيض نوره ومحبته - جعل له آية:

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران - ٤١)

آية.. ومعجزة أمان واستقرار.. وصفة شفاء وسكينة..

فترة هدوء واستكانة.. إتاحة أن يظل داخل تلك الحالة النورانية وفى ظل البشرى.. والقدرة الإلهية.. ويقين الاستجابة للدعاء ومزيد من التسبيح والخشوع والعبادة والحمد.

لفت نظرى تحديد رقم ثلاثة..

لمــاذا؟..

أدركت حكمة إتاحة الفرصـة له بـالمكوث فى حصن تلك اللحـظة الخلاقة شديدة القرب والوصـل وآيات النعمـة.. لكى يتثبت.. ويقر نفسًا ويتأمل حكمة الحرث العظيم.

لكن لماذا على وجه التحديد عدة الأيام -ثلاثة-

وكل حرف فى التنزيل له دلالة وسبحانه أحصى كل شىء وعدّه عدًّا.

- أسلمت وجهى إلى الله - ناديت من الأعماق - رب اجعل لى آية.

يوم واحد قليل

يومان ليسا بكثير..

ثلاثة أيام «كفاية» (مضبوطة ومحددة وقائمة بذاتها.. وفترة حاسمة كافية) مساحة زمنية ووجدانية مشبعة.. متوسطة بين الحدث وقمة بيانه وإعلانه.. ليست بعيدة أكثر مما يجب.. ولاقريبة مازالت فى وقع الاتيان والتجسد.

تعـادل معجز بـين بدايـة الدعـاء.. وذروة التحقق.. ونور الفهم والإدراك.

متوسط موزون ومتعادل.

وكل شىء بقدر.. كل الحروف والأرقام، وترتيب الآيـات، ونسق التتابع، تشع وتنبض بين أيدينا وتدعونا لنقيس ونستنتج.. لنبحـر فى جوفها ونتعلم من حركتها ونعى حكمتها.

سبحانه.. واسعًا عليمًا.. وحسيبًا.

يعلمنا الكتاب والحكمة.. ومعجزة البيان بين أيدينا.. يعلمنا عدد السنين والحساب.. تاريخ الأولين والأنبياء.. محكم التعاليم والأحكام.. يجعله منهج تفكير ودراسة وأسلوب حياة.. يجعله لنا آية.

إنما نحيا بكل كلمة من الله.

فوزية مهران

ن والقلم ومايسطرون

الحروف فى أول السور ننطقها بقوة. . ولها إيقاع خاص. . هى مثل كل الحروف، لكن جرسها المنغم فى بدء الآيات له وقع ما. . ووقفاتها المهيبة لها صدى عميق، كأنها قسم مرفوع. . أو أثر ممدود. . وإعجاز مشرع. بعض العلماء والمفسرين لايقربونها ويقولون إنها من أسرار التنزيل. .

والإمام محمد عبده يقول إنها من تمام الإعجاز. . يقول ما معناه إن القرآن مكتوب بذات الكلمات والحروف - نعرفها تمامًا ونجيد تناولها واستعمالها- لكنها فى محكم القول لايمكن تتماثل أبدًا. .

ومعجزة بنائها. . وتركيبها وتأكيدها وإيقاعها معجزة فى حد ذاته وليس كمثله كتابة أوحديث. .

واسترحنا لهذا التفسير. ولِنّا له. . حروف مشرعة تشد الانتباه. . وتهيىء النفس لتيار منير يسرى إلى القلب وتتلقاه أذن «واعية» فتتأمل معانيه والعمق فيه وتصريف الآيات. . ودقة الإشارة والتنبيه.

نبهني حديث عن رسول الله ﷺ يقول فيه «إن من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة -والحسنة بعشر أمثالها- لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». إذن الحرف أيضًا ليس كمثله شيء.. ولابد أنها تأتي بعناية ودقة مصابيح معلقة.. ووقفات مقصودة.. وترديد لإيقاع وقسم وموقف انتباه.. وإعداد لجو مرسوم.. لإحداث حالة.. واستعداد مخصوص.. إذا لم نجد لها تفسيرا فيكفى خلق الإحساس العام وتهيئة التلقى والاستماع والتوجه.

كنت أختم سورة الملك..

آية الختام تفتح دائرة السؤال وتؤكد الإجابة وترسم علو الجواب:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك - ٣٠)

هو الله سبحانه تتردد الإجابة بكل ثقة داخل الصدور وفى الأذهان.. هو الرحمن ييسر لنا الماء الجارى العذب وفى مقدورنا تناوله.. ينشرح الصدر ويسأل هل من مزيد.. ونكمل التلاوة.. بداية سورة القلم:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم - ١)

ويأتى حرف النون عميقًا قويًا مؤكدًا فى بداية السورة، مرتبطًا معطوفًا عليه القلم ومايكتب ويسطر به..

وانفتح فى جوفها أشعة ما تلاقت بنون النهاية فى كلمة معين..

وخفق القلب.. هناك ارتباط بين نون الماء المعين، ونون القلم، وهى متتالية متبادلة الإبهار والعزف..

كأنها نبع ماء منهمر تتصل بنبع آخر عظيم، أو زورق فى عين جارية تركن إلى مرفأ هداية وأمن وهدوء، وتتداعى الآيات متدفقة منها -عرشه على الماء- وخلق كل شىء حى من الماء -وآية السفينة والنجاة- ومنها الماء الطهور.. تتسع حدقة النون الرائعة.. فى بداية قسم القلم والكتابة..

حرف النون عجيب حقًّا ومثير.. حرف جامع ويجمع.. يدخل على الكلمة وهو ليس من مكونات حروفها الأصلية فيجعلها صبغة جمعية.. وجماعة وحشد كبير (مؤمنون وصابرون ومسلمون).

وتدخل على الفعل أيضا فتغير فاعليته وصلاحيته إلى صيغة الجماعة (تحبون- تخلصون- ترشدون- تنظرون).

وعندما تكون أصلية فى جسد الكلمة لها وقع خاص.. وقفة حاسمة وإيقاع جليل وتتوالى فى تصوير معجز، فتأخذ القلب، وتثرى السمع والوجدان (الرحمن- القرآن- الإنسان- البيان).

وعندما تتصل بحرف واحد تكون أقوى وأشد وقعًا وتأثيرًا، وأعلى درجاتها وتصعيدها قدرة الله العلى العظيم فى قوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾.. وإن جاءت بجانب الألف.. تقف متسعة بجواره، ولاتلتصق فيه.. إن وأن.. تأتى آمرة.. فاعلة.. شرطية.. جازمة.. مؤكدة وقاطعة..

الإسلام دين الجماعة.. دين الإنسانية وتعليم القيم والمعاملات والسلوك.. يخاطب الإنسان فردًا.. ويخاطبه فى أمة.. فى جمع وحشد

عظيم يجعل هدفه دائمًا إلى النفع العام والمصلحة العامة وخير الإنسانية جمعاء . .

ودليل أيضًا أنه يعمل عملاً عظيمًا فى بناء المجتمعات . . وإقامة الجماعة المؤمن به . . يجعلهم أفضل وأكثر إنسانية وخلق والتزام قيم الحق والعدل . .

إنه كالماء المعين . . يروى وينبت ويقيم مدادًا للأقلام والعلم والفنون وأسلوب حياة وعيش نبيل .

كل هذا تداعى إلى ذهنى عندما أتعرض إلى حرف من القرآن العظيم لقد واصل إشعاعه على نفس النون فى بداية آية بينة . . فجعلها مبينة نابضة بالمعنى والإحساس ، وتمد إلى رؤى بعيدة . . وفكر مستقبلى وقياس صحيح .

فى لحظة بارقة تواصلت النون الرائعة وسرت بجريان الماء المعين . . يأتينا به مَنْ بيده الملك . . يغمرنا بفضله وتنهمر الآيات والنعم والنور المذاب وتسطر أعمالنا بأحرف من نور . .

موزون

إنما نُخلق بكل كلمة من كلام الله.

بين يدى الآيات والكلمات آتيها بقلب سليم.

أتأمل معانيها.. أجدف فيها.. أعمل ذهنى وأشحذ طاقتى..

أجعل نفسى متاحة لها.. تتجلى على، وترفعنى درجات لأشهد فعل خلقها الأول ويعاد ميلادها داخلى من جديد.

ويفتح الله بها علينا فتحًا قريبًا ومبينًا.

هذا ما حدث لى مع كلمة «موزون»

وكأنى أراها للمرة الأولى..

توقفت لديها مبهورة.. ارتدت إلى مبصرة وبصيرة.. وقعت فى نفسى وحسى.. موزونة بارقة متألقة..

اعتدل كل مابى.. وما حولى..

أحس بفرط دقة واعتدال.. تورق داخلى حركة انتشاء واستقامة.. تفتح لميلاد مشترك جديد.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾
(الحجر - ١٩)

كل شيء بقدر وميزان.

حتى النبتة الصغيرة «موزونة»..

هذه الأرض الصعبة.. والتربة العسيرة تعلن معجزة البعث وعودة الحياة.. وتخرج من البوار والعقم والموت.. تهتز وتربو بماء منهمر.. ويخضر وجهها وتنبت وتزدهر وتثمر وتمتد (حدائق ذات بهجة) وجمالاً ونعيمًا.

﴿وَيعْلَمُ مَافِى البَر والْبَحْرِ وَمَاتَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّيَعْلَمُهَا وَلاَحَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَرَطْبٍ وَلاَيَابِسٍ إلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام - ٥٩)

النبتة الصغيرة فى جوف الأرض.

وورقة الشجر أو الزهرة أو عود أخضر رفيع.. يعلمها الله سبحانه عندما تقع على الأرض فى موعد محدد.. وأوان دقيق وبعد أن تبذل كل مافيها من عصارة ونضارة ولون بهيج إلى غصنها تذوى ويعلمها الله..

كل شيء بمقدار وعلم وبيان وحكمة بديعة

(حتى التفاصيل الدقيقة وأبسط هزة وخفقة وحركة رسمها لنا.. وعلمنا كيف نؤديها لتستقيم حياتنا، ونتوافق مع حركة الخلق والإبداع.. ونكون من بديع صنعه.. ونؤدى بإتقان وانسجام وارتقاء).

حتى إذا حيَّانا أحد بتحية، وجب أن نحييه بأحسن منها أو على الأقل نردها بمثلها على قدرها وبحسابها وبنفس إيقاعها.

كل شيء بقدر وحساب ومحبة تصبح حياتنا أجمل وأقيم، والمجاهدة فيها إلى صحة التوازن والاعتدال.

﴿موزون﴾.

ومن الكلمة تداعت لى صورة مماثلة فى عملية خلق وميلاد جديد.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نوح - ١٧)

أنبتنا من الأرض.. نفخ فينا الحياة.. وكان لنا النمو والثمر والذرية.. وخلق فينا الموت والحياة. والأرض رفعها سبحانه.. ووضع الميزان..

نتعلق بالميزان الأسمى كى يعتدل الكون والأعمال وكل مايصدر عن الإنسان.. ميزان شاهق حساس.. داخل النفس السوية الطموحة إلى الحق والعدل والسلام، النفس وبين الناس.

التوازن النفسى والثقة وحسن الصفات من إقامة كلمات الله والاستقامة عليها والسيدة مريم التى كرمها الله واصطفاها على نساء العالمين ﴿أَنبَتَها نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران - ٣٧)

تقبلها وعلمها ورباها.. تربية حسنة..

التربية عبر عنها سبحانه «بالإنبات».. هى النفخة المباركة من لدنه زكاها وجلاها لديها فطرة الإنسان الطيبة النقية أبقاها لديها.. علمها الخضوع والعبادة والتوجه إليه جل جلاله.. وأنعم عليها بالرزق الوفير.. واتسعت روحها وعقلها وبيانها لأن ترد كل شيء إلى الله.

نبتة بشرية صالحة كما تبدو الغرسة الطيبة فى الأرض المباركة وتستقيم على عودها وتولى قمتها إلى الله.

جعلها آية.. وبشرها بكلمة منه.

سبحانه البديع الخلاق..

لوحة مبدعة «موزونة» بكل الحركة فيها والصراع والسعى ومظاهر الحياة. بتعاقب الليل والنهار.. الشمس والقمر.. ودوران الفلك ودورة الحياة ومراحل الخلق والحساب..

كلها آيات بينات..

شاهدة وقائمة وتدعو للتدبر والتأمل وبلوغ غاية اليقين والإيمان.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس - ٦١)

من بداية ما يقال له ذرة أو جزىء منها..

من أصغر ما يقال له مثقال.. يمكن وزنه وحسابه..

وإطلاق قوى هائلة من داخله وتنميته وإعلائه.

وتصبح الطاقة فيه «موزونة» وفاعليته محسوبة.. وفى حد ذاته على صغره وزفاهته وعظم صغره.. موزون.

ويدور فى توافق مع حركة الكون والوجود..

وأمتع مالدينا أن تتوافق حركتنا وأداؤنا مع سنة الله ومع ميزان الحق والعدل ومع نور التوازن واستقامة السعى.

أن تتحقق فينا معجزة الخلق والسمو والعزة.

نولد بالكلمات وعليها نحيا ونستقبل دورات الزمان، ووقع الأحداث نقيم الكلمات ونعمل بها ونجعل نور الهداية غامرًا وحاضرًا.

واسع عليم

أعيد تلاوة الكلمات..

يحتوينى عزفها الداخلى.. تهزنى حركتها الكامنة أتمثلها.. أكونها.. أهبها نفسى تمامًا.. يسعنى نبضها وحنوها.. تحملنى إلى عمق الحكمة فيها وتمد بى الشوق..

(حدثت لى حالة من الوجد.. أخذتنى لحظة تجلى.. غشيتنى يقظة غائبة.. وعى لاتدركه الحواس.. بصيرة يعش فيها البصر. أكاد أذوب أصعد وأتلاشى).

جرت لى عملية تقطير ربما.. ذوبتنى الكلمات فى جوفها.. أسلمتنى إلى عينها الجارية.. تتحرر ذراتى وتغتسل.. مع الحق تستبق.. تعود لتتكثف من جديد، قطرات ندى، صوت تصاعد من قرارة نفسى.. سمعت صوت نفسى داخلى...

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ٢٦١)

وسع كل شىء رحمة وعلما.. واسع الجود والعطاء والمغفرة، المحيط

بكل شيء علما وقدرة.. عالم الغيب والشهادة، يغنى كُلاًّ من سعته ويضاعف لمن يشاء..

وهو أعلم بنا..

تلاوة الآيات تحقق لنا الأمن والسعة.. تمدنا بمزيد من الثقة.. تثبت أقدامنا وتزيدنا إيمانًا، تجعلنا نواجه أى موقف بثبات وصلابة وتزيد من عزمنا فى المحن كلماته لاتنفد أبدًا.. بها نزداد حكمًا وعلمًا.. ونتعلم من تأويل الأحاديث ونشحذ طاقة التفكير لدينا (إقامة القرآن) لاتذرنا فردًا.. تضمنا إلى جيش الحق وتلحقنا بالمجاهدين وتحشرنا فى زمرة الصالحين.. وتؤلف بين قلوبنا.. وتزرعنا عضوًا نافعًا فى جسد الأمة.. يخاطبنا بصيغة الجماعة، ونكلف بالحفاظ على المال العام والدفاع عن الأرض والديار والأبناء، تجعل الواحد منا أمة وكتيبة.. تربطنا بهدف مشترك.. العمل الصالح.. نفع الناس.. والسعى من أجل حياة طيبة.. تزداد فى الخلق بسطة وسعة.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ٢٦١)

تأتى فى نهاية الآية كأنها لحن الختام.

تابعتها بين سور القرآن.. تجىء لبيان سعة الفضل وإحاطة العلم.

تتبدى لدى الإنفاق وإتيان المال.. وبسطة الرزق والعلم.. وموفور النعم.. تبرز كقرار حكيم.. بيان مؤكد.. تقرير مبين.

تتجسد برهانًا حاضرًا.. تجلى كذروة وموقف خلاق.. ومشهد متسع.

تجيء كنتيجة مبهرة لمقدمات متتالية، تذكر حكمة مضاعفة الثواب واتساع دائرة الفضل والعفو.

سبحانه له الأسماء الحسنى...

الواســـع العليم

جملة فائقة قائمة بحد ذاتها.. مقولة حانية.. نغمة واعدة.. طاقة نورانية دافقة آية مبصرة تقرر حقيقة وتثبت حالة وتؤكد حكما.

واضحة البيان.. جلية المعنى بارقة الإشارة.. موصولة بالبشرى ومتصلة بأسباب القوة والعزم..

ترتفع بالحس إلى التجلى واليقظة والوعى.. تشد من أزرنا.. تساندنا ساعة العسرة والضيق.. وتطلق قوانا المبدعة..

تغرس فينا الأمل.. تشدنا إلى فضيلة الكرم والجود والشهامة.. «ووسع» آلام الآخرين والتفريج عنهم.

(وكما لاحظت أنها تأتى فى ختام الآية تنبهت أنها تجيء على هذه الصورة دائما.. هكذا توأما) تأتى متلاصقة متلازمة.. متداعية.

عند ذكر «الواسع» يتبعها بالضرورة «العليم»

مرة واحدة فقط ذكرت ﴿واسِعًا حَكِيمًا﴾ والحكمة من تمام العلم.

علمه يسع كل شى، وكان بكل شيء عليمًا.

محيط بالكون والنفوس «وعلام الغيوب» يسع الظاهر والباطن ويدرك مانخفى ومانعلن..

وسع عميق بعيد المدى والغور.. بالغ القدرة.. نافذ العلم، ويجعل لنا من لدنه حكما وعلما.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ١١٥)

يمد بنا الحب.. نريد لنستقبل وجهه سبحانه، نولى وجهتنا إليه بديع السموات والأرض، واسع لايتحدد ولايحصر، ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لاتحده الجهات ولاتحصره الأماكن، ليس كمثله شيء، هو معنا دائما.. أينما نكون.. وهو قريب.. له المشرق والمغرب، يسمع ويرى.

إذا جاءت الصلاة وأنت فى أى مكان فى العالم فى الصحراء أو البحار والفضاء فلتستقبل وجهته ولتقم الصلاة.. فهو عليم بنية التوجه إليه.. وبمن يأتيه بقلب سليم يبتغى وجهه.

واسع الفضل والمغفرة.. بالمؤمنين رءوف رحيم، عين لنا مكانًا نستقبله فى صلاتنا، أسماه بيته، اتجاهًا جامعًا للناس.. من كل بقاع الدنيا.. ومن جميع الجهات الأصلية هو منهم بمثابة القلب.

وفى الصلاة الجامعة نولى وجهنا شطره دليل على وحدة الأمة.. تساندها وترابطها وضرورة إقامتها كالبنيان المرصوص صفًّا.

وليشعرنا منذ بداية إقامة الصلاة أن نقيم حياتنا على أسس الحق والعدل والمساواة والمحبة والترابط والتآخى.. والوقوف صفًّا واحدًا قويًّا مهابًا جمعًا.

ليعتدل ميزان حياتنا.. وتصبح الحياة أشد دفئًا وأمنًا..

ولنتأمل المشهد الرائع المتجلى للمساواة.. والمساندة.. ودفء القربى والمودة.. المشاركة فى التلاوة والركوع والسجود والدعاء.. كيان إنسانى هائل ينطق بالحب والأخوة والسلام.

مشاركة جماعية.. صياغة عامة.. وفكر متسق وإرادة متوحدة وتزكية للإحساس العام.

ويجىء ختام الآية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

ذلك بعد أن اتضحت لنا الصورة.. وتجسد الأداء وتبينا الحكمة يمدنا بالقول الفصل وتمام الرؤية، وأن الله واسع عليم.

يمنحنا الوسع والتحرر والشمول فى التوجه إلى الله.. إلى طريق الحق ووجهة الاستقامة ونبل الغايات.

وهو فى المقابل يبرز الكيان المحدود والنطاق الضيق للمستكبرين فى الأرض، وللطغاة، لمن يحسبون أنهم يملكون مقاليد الأمور وأنهم مركز الكون.

ماذا يصنع جاه أو مال.. نفوذ وأتباع، ويفضى إلى التكبر والاستعلاء ذلك هو الخسران المبين.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة -٢٥٥)

وكلما تقدمنا إليه.. يفيض الحب ونحس بالوسع والرفعة والاطمئنان، لاتأخذنا رذيلة الكبر وخطيئة الاستكبار.. لايستبد بنا جنون الزهو والاستعلاء.. نشعر بالتخلص من أمراض الأنانية، وأدران الجشع والشراهة والعدوان..

نفر من نقيصة الاستعلاء على الناس بما رزقنا الله من ملك أو أموال، وكى يعتدل ميزان الحياة.

تدركنا مشاعر الوسع والتحرر.. لانسجد إلا لله.. تغمرنا العزة ولانحنى رءوسنا لأحد من الناس، أونحسب أنهم يملكون لنا ضرًّا أونفعًا..

بل نسعى فى طريق المجاهدة والاجتهاد.. نأخذ بالأسباب وننمى مالدينا من قدرات.. نزكيها ونعلى من فاعليتها، ونطور فى أسلوب العمل والأداء ونتدرب على البذل والجهد والإتقان.

نبرئ من مذلة التوجه إلى الآخرين ومذلة السؤال.. ونثق بقدرتنا على العمل والتأثير والإنجاز.

نتعلم الحكمة وحسن تقدير الأمور وموهبة اصدار الأحكام.

ترك الرعونة والغلظة والمظهرية ونحن نقيم أقدار الناس... إذ لايصح أن يكون حكمنا على أساس مايتمتع به الشخص من مال وثروات.

وقد سبق وتطاول السفهاء وجادلوا نبيًّا لهم، بل وربهم : كيف يكون لطالوت الملك ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾.

المال هو المقياس لديهم.. الثراء هو الذى يهىء للقوة.. للنفوذ والملك.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يلقنا درسا ويعلمنا صدق الرؤية وأسلوب الحكم الصحيح.

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ٢٤٧)

هناك صفات أعظم وفضائل أكبر وميزات ترفع إلى مرتبة القيادة والحكم.

المال والثراء مقياس زائف لحقيقة الإنسان..

المال يمكن أن يغرى بمزيد من الجشع والاستغلال وتوجيه دفة الأمور لصالح أشخاص بعينهم وحسب مصالحهم الخاصة ومقدار ماينتفعون به.. ولكن وسع العقل القدرة على التفكير والتبصر ومحبة الشورى، والصحة والعافية التى تمكن من بذل الجهد، والسهر على رعاية مصالح الناس وأمنهم، ومستقبل العيش لصغارهم.. تلك هى مقومات الملك الحقيقية ومسئولية العمل العام ورعاية شئون الناس.

وكان من الطبيعى والمنطقى وتصعيد الإيقاع الملهم أن تختم الآية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

هو الغنى يهب الرزق لمن يشاء ويؤتى الملك من يشاء بيده الأمر «والخير» يدبر الأمر ويضعنا فى موقف الابتلاء والامتحان.. وأمامنا هداية العقل والدين وآيات بينات فلابد أن نحسن الاختيار والأحكام، ونميز بين الزائف والحقيقى ونوازن بين الأحكام.

ويجعل الله لنا آية...

يجعلها مبصرة بين أيدينا وبينه كى نتعلم حسن القياس وترتيب

المعطيات وأخذ العبرة من سياق الأحاديث وقصص الأولين واستنباط الحكم السليم.

ويضرب الله للناس الأمثال.. تتألق آية أخرى معجزة وقريبة منا وملتصقة بوجودنا وتنتهى بنفس الأسماء والإيقاع. معجزة الأرض التى تؤتى ثمارها وتضاعف غلتها وطلعها..

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ٢٦١)

الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله.. فى الجهاد، فى الدفاع عن الأرض والكرامة والديار.. من يقيمون المدارس والمستشفيات ويحرصون على النابغين وذوى الكفاءات الذين يبذلون من أموالهم وأنفسهم لإقامة حياة أمتهم وتأمين سبل العيش الكريم للضعفاء.. من يشيدون بنيان مجتمع إسلامى متين وإعلاء كلمة الحق، عملهم يثمر ويبارك ويزداد نفعة مثل الغلة فى الأرض الخصبة وبعد الجهد والرعاية والعمل تضاعف ثمرتها وتأتى بخير وفير ويعم الخير والنماء.

ثم تجىء جملة الختـام.. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

الزيادة إلى أوسع مدى.. وهو عليم بعباده، وقدر الحب المبذول والجهد والعطاء عليم بعباده الأخيار يمتعهم فى الدنيا والآخرة.. معيشة طيبة وجلال واحترام.. ومكانة فى الآخرة بين الصديقين والشهداء ﴿وحسن أولئك رفيقًا﴾. وكأنهم من بين الرسل المصطفين.. يرسلهم

بالبشرى إلى عباده.. ويمكن لهم فعل الخيرات وبهم تشرق الدنيا وتزداد الحياة بهاء وثراء..

الذين ينفقون من أموالهم وعلمهم ويقيمون أبنية العلم والبحث والشفاء كل فى سبيل الله.

الدول الغنية تنشط فيها المؤسسات الاجتماعية وتتسع دائرة التطوع والخدمة العامة، وقد تتحد رءوس الأموال من أجل تدعيم الأبحاث العلمية، وإطلاق طاقات الكشف والاختراع والابتكار من أجل مسيرة التقدم وازدهار الحضارة والقدرات.

(تعانى الأمة الإسلامية حين تباعد الناس فيها عن منهج الله.. واتخذوا الكتاب بورًا، وعاش مترفوها عيشة الأفراد.. كل يبحث عن ملذاته، وكنز الذهب والفضة، أوتكديسه بين خزائن أجنبية وحرمان الأمة من دورة المال الطبيعية ومن النفع العام)

ويدل الإنفاق فى سبيل الله.. واستثمار الأموال داخل الأوطان نجد من يروجون سلعًا فاسدة وينافقون ويصيبهم سعار الإثراء ومن أى سبيل!..

الله يضاعف ويبسط الرزق والكسب، ويغنى من سعته، ويزيد الأجر والفضل ومع ذلك نجد من يغل يده ويقتر ويبتز حقوق الآخرين، وكأنما يدخل فى حلف مع الشيطان.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة - ٢٦٨)

وكان جميلاً أن تذكر المغفرة فى مجال الفضل وإعادة ترديد وتأكيد الوسع والعلم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الإنفاق والإحسان يغفر الذنوب ويصفها الخالق الكريم أنها بمثابة قرض حسن لله. هو القدير المتعال واسع فى المغفرة والرحمة ويربى الصدقات. والمغفرة من تمام الفضل والإحسان.

علينا أن نتعلم «الوسع».. رحابة الصدر وعمق المشاعر واتساع الوجدان.. يمكننا أن يضمنا الود وتشملنا دائرة الحب، والحنان أن نأخذ زادًا وطاقة من قدرات الخالق المنان.. هو يرفعنا بالحب درجات ويهب من صفاته سبحانه ويغدق علينا نور الآيات والأسماء..

يقول فى خلق الإنسان.. ﴿علمه البيان﴾.. يدعوه ﴿سميعًا بصيرًا﴾ يمكننا أن نزيد مساحة النور داخلنا والحب ونضم ذلك الوسع الرحيب.

لنبدأ بفيض الحب.. يوسع كل منا على أسرته وعياله.. موظفيه ومواطنيه ونهب للمساعدة والمساندة.. ليتسع صدرنا للنقاش والحوار، وتبادل الرأى والمشورة بيننا.. «وسع الحب والحنان والاهتمام يفعل المعجزات ويقيم بنيان مجتمع سليم كذلك المال الحلال، عندما ندرك أننا مستخلفون فيه..

(المال هو الحرية) قالها شيخ جليل كان يضم إليه ابناء الشهداء والمجاهدين ويعلمهم ويقيم حياتهم ويقوم على تربيتهم وإرشادهم.

(وقالها واعظ زنجى.. كان يدفع كفالة الزنوج المضهدين ويعدهم للتعليم والعمل) المال نعمة عندما نحسن أوجه إنفاقه وترشيده.. ويعود بالنفع والعلم والتحرر.

والحب هو الرصيد الإنسانى الذى يقيم الأشياء وينمى الطاقات

ويضاعف الجهد والمال والاستثمار.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَايَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة- ٥٤)

من تمام الوسع والفضل والحب أن يرفعنا الله بالحب إلى عليائه.. ويجعل علاقة الحب متبادلة.. منه وإليه صاعدة محيطة حانية ونافذة.. يصفهم ويجعل لهم آية، من المؤمنين، أحباءه.. ويحبونه لايرتد أحد منهم عن دينه.. عن منهج الاستقامة والعدل والحق.. عن طبيعة الحب والتضحية والفداء.. يذوبون عطفًا وودًا ومحبة للمؤمنين.. وأشداء أقوياء فى مواجهة الأعداء..

لايخشون اللوم أو الافتراء.. يجاهدون فى سبيل الله.. ووجهتهم دائمًا الجهاد وعلى كل المستويات.

وهو فضل من الله أن يصنعنا بالحب على عينه.. ويصوغنا بالنور الذى أنزل لنا.. وبرهان الآيات..

وعندما نبلغ تلك المنزلة يقيم الحب العظيم بنياننا.. ويشد من أزرنا ويزيد من ثقتنا وإيماننا.. نبلغ أيضا تلك المنزلة من السعة والامتلاء.. نحس بعلو واقتدار واتساع الرؤية ونبل القصد والهدف واتساق الخطى.

وبذلك نكون قد أخذنا ما آتانا ربنا بقوة حقا.. وطورنا الحب.. وغمرنا فيض النور ﴿واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

البكاء الجميل

وقفت صغيرتى فى الشرفة..

صامتة تمامًا.. ساكنة.. ذهبت إليها لأرى أى مشهد يسحرها ويجذب انتباهها العميق..

كانت دموعها تسيل أمام وردتها الحمراء.. خفق قلبى.. ماذا جرى؟! حاولت أن أجعل صوتى محايدًا..

(لماذا البكاء؟ قلت إنه لايحل أية مشكلة.. يبقى الموقف على ما هو عليه.. يزداد الألم وتلتهب العيون..)

وكما عودتها أرفض سماع أى شكوى مصحوبة بالأنين والدموع الصوت يصير مهتزًا.. متقطعًا لايبين ويفسد الحال.

- أدربها على الصبر والاحتمال منذ البداية.. رفض الضعف ومشاعر الشفقة والحسرات.. عدم جدوى الهزيمة والانكسار أمام المتاعب والعقبات. كذلك عدم استخدام الدموع لتحقيق رغبة ما.. أو مطلب خاص.

(أريدها لتنجو من دائرة الإشفاق على النفس.. وأدربها على أسلوب المواجهة والتفكير ومحاولة إيجاد الحلول).

حتى عندما تقع على الأرض فلتضحك من نفسها وتعاود الوقوف من جديد، وبذلك تصبح أكثر حرصًا فى المرات القادمة..

كانت الصغيرة مرهفة الحس.. ذات كبرياء.. مسحت دموعها وأقبلت تبتسم - وكأنما أشرقت الشمس من خلال رذاذ شفاف-

قالت: أحب وردتى.. وجدتها مفتحة «على الآخر» ه تنظر لى.. كأنها تحدثنى وتحبنى، خفت أقبلها فتقع أوراقها.. أعبر لها عن حبى.. ووجدت دموعى تنزل..

قالت بيقين: فيه بكاء جميل.

خفق قلبى (أى تعبير مدهش.. وعمق فسيح.. وحكمة تلقائية تكمن فى هذا الجسد الصغير العزيز).

كيف تيقظ منها الوعى.. وأمام المشاهدة ارتفعت إلى إدراك عميق، كأنما وقفت على سر الأشياء كلها.. وبلغت النور الكامن بالأعماق.. وعبرت بمثل هذا المنطق التلقائى، تفيض عيناها بالدمع لفرض إحساسها بالجمال والحب وتقول تعبيرًا مكثفًا وجامعًا (البكاء الجميل).

تعبير ربانى (قلت عن الدموع يومًا إنها كلمات مذابة - الدموع كلمات مذابة - حقًّا اكتشافى اللغوى مس قلبى.. أعاننى على الصبر عند فقد الأحبة - كانت دموعى رسائل حب.. وبث شفيف على موجة الشوق).

عجبت من قبل كيف يكون الصبر جميلاً.. نضجت وتدبرت القرآن.. وعرفت معنى الصبر الجميل.

الذى لاشكوى فيه.. حالة من التأهب والاحتمال.. مانع للانهيار.. وحاجز أمواج (ذكرنى شيخى بقول أحد العارفين بالله، عندما تبكى النفس مافقدته.. تبتهج الروح بما نالته).

تخفت حدة المطالب والأغراض والرغبات.. تصفو الروح بالبكاء.. يشرق جوهر الإنسان يغمره بلسم الصبر الجميل.. نتوجه إلى نور الله.

الصبر الجميل طاقة نور ودفع (صغيرتى بحسها الرقيق كأنما تفرق بين بكاء الضعف والشكوى وبين دموع تفيض من فرط الحب والحنين).

دموع هى فرط محبة.. وذوب رحمة وتوحد مع الطبيعة والجمال وتصبح النفس متاحة للنور الكامن بالأعماق.

وقد نبكى بلا دموع فى سيمفونية الصبر الجميل (أحد أضلاع مربع الحكمة وتربية القرآن والخلق القويم) مثل السراح الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل وصغيرتى تضيف بعدًا جديدًا.

وجاءتنى الآية مبصرة

تذكرت بكاء الذين لايستكبرون.. وتزيدهم الآيات خشوعًا ومحبة.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة-٨٣).

كثيرون لايملكون دموعهم عند تلاوة القرآن.. من خشية الله أو من فرط الحب والشوق إليه.

من صدق البيان.. وهزة الوجدان.. وولوج عالم الحق وروعة الاكتشاف والمعرفة..

المؤمنون دائمًا تتوافق لديهم حركة تلقائية.. قمة الحب والاقتراب.. يذيب الحب الدموع.. ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم-٥٨)

كل العواطف والأحاسيس تتضمنها الآيات البينات..

والتعبير عن الفرح والحزن وطريق الاستقامة وعدم الإسراف والغلو وفضيلة الوسط بين حدى الرذائل والاخطاء ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ وتباين درجات الضحك والبكاء..

البكاء المحزون حتى ابيضت عينا نبى الله يعقوب حزنا وكمدا لضياع يوسف.. ومكيدة إخوته له..

بكاء العبرة والتذكير.. بعد بيان الآيات وقمم التنوير فى القص الكريم وضرورة التفكير والتدبير وإعمال العقل بين الأحكام والتوصل إلى منهج العدل والتحرر ونفع الجماعة ورفع جوهر إنسانية الإنسان.

﴿وَتضحكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ﴾ والبكاء فى مواضع العبرة والتذكرة يكسر حاجز الغفلة.. ويزيل آثار القسوة والوحشة ويمد إلى بحار الرحمة والحنان والسلام..

ونتبع المزيد من الآيات نتمثل فيها فيض الدموع وبحار الأشواق ورحلة الصعود إلى ذرا الحب..

﴿وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً. قُلْ

ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يخرُّونَ للأَذْقَانِ سُجَّدًا. ويَقُولُونَ سبحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء ١٠٦ - ١٠٩)

وأشهد أن ترتيب الآيات على هذا النسق الجميل يعطينا التدرج الدرامى للتأثر والإحساس.. ويرتفع بالإحساس إلى مستوى الإدراك والوعى. يسلمنا لحالة الخشوع والحب.. (الإحساس الذى يتحول إلى إدراك.. وكل إدراك معرفة) حالة من الذوبان والعلو. حرية انطلاق إلى العلا رغم حركة السجود والإذعان.

تتصعد الكلمات المعجزة على درجات السلم الموسيقى النغمة الأساسية الأولى تتردد داخل حركة العزف الجميل وتستقر فى الوجدان وترتفع إلى معرفة مبهرة..

هذا القرآن نزل مفصلا.. مبينا.. ومتفرقا لتقرأه على مهل وتأن وبتأمل وتدبر لينسكب داخلنا ويشيع النور.

وتنبثق نغمة تالية معارضة أو متداخلة ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ تلك قضية أخرى.. الإيمان متروك للاختيار.. وبحرية تامة.. (الكلمات لها قوة النفاذ والحضور وقوة البيان والبرهان).

الهداية إلى الحق تعين على التفكير السليم واختيار الموقف.. والالتزام بالعدل والحق..

والذين أوتوا العلم يعرفون أنه الحق.. يصوغهم من جديد ويطلق قواهم الكامنة وحركتهم الداخلية المبدعة..

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ و﴿يبكون﴾ هنا نصل إلى قمة العزف والأداء.. توافق حركى وروحى..

تسبيح صامت.. صمت عميق وسلام.. تذوب الروح.. وتفيض الدموع..

وفى وصف فرعون وجنده وجحودهم (إنهم قوم مجرمون) وهم ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ لم يقدروا ما أنعم الله عليهم من تولى ملك مصر بلد الجنات والعيون والزروع ومكان للإقامة بديع.. فحلت عليهم الصيحة وأخذوا على أعين الناس ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ يالها من صورة رائعة.. السماء لا تبكى على المستكبرين الطغاة..

والسماء تبكى رحمة ومحبة وترحيبا للمتقين. السماء والأرض تذويان فى بكاء جميل من حب المؤمنين.

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يغالب دموعه أثناء التلاوة وقراءة الآيات..

(مازالت الأمة تباهى به الدول وعصور الزمان.. صنعه الإسلام على عينه.. صارت العقيدة أسلوب حكم وحياة.. حقق معجزة التطبيق لجوهر الدين وأقام القرآن)

قاد الانقلاب إلى الله.. بعد ظلم الأمويين وتحويلهم الخلافة إلى ملك غشوم.. وأعاد العدل والمساواة والحرية وأصول حكم للإسلام.

وسأله صديق: فلماذا البكاء؟

«أنا مسئول عن هذه الأمة.. أخشى أن أكون قد قصرت فى حق فقير

جائع.. مريض مسكين.. أو مظلوم أو مقهور.. نفسى فداء كل يتيم وأرملة أو شيخ كبير أو أسير».

يبكى من فرط الإحساس بالمسئولية..

لايريد علوا فى الأرض ولا فسادا.. بل يضع نفسه فى خدمة الناس جميعًا.. (دموعه تسيل من عظم الإحساس بالمسئولية.. والرغبة فى تأدية الأمانة وإتقان العمل.. وتحقيق العدل للجميع..

وما أعذب هذا النوع من البكاء الجميل!

قطرات حب.. وذوب رحمة وشحن للطاقات بالتطهير والنظافة والإيمان والعودة إلى طريق العمل الصالح وتجديد لدورة الفكر والإحساس لدى الإنسان كى يفيض الحب والنور وينتشر السلام.

الضحك الجميل

الضحك حرية وبهجة.

يغسل القلب ويشرح الصدر ويرطب النفس.

نحن فى حاجة دائمًا لتلك الشحنة المنعشة والدفقات المجلجلة وجو المرح.

كلنا نولد ولدينا هذا الاستعداد الطبيعى للضحك والابتسام نتمتع بروح المرح والاستجابة للدعابة والفكاهة والمشاركة فى منطقة الدفء الإنسانى المميز للخفقة التى تنطلق من القلب وتبرز فوق الشفاه. موهبة غريزية واستعداد فطرى لدى كل الناس.

وكل بعد ذلك يعد مسئولاً كيف يدير الضحك لديه ويرتبه ويقوم بأدائه وحسن تنظيمه والمعايشة بين أسباب القتامة والجهامة والاكتئاب.

الضحك من طبيعتنا يحتاج إلى ممارسة صحية وتدريب.

لا أحد يفقد القدرة على الضحك حتى فى أحلك الظروف والملمات.. نضحك طالما ما زلنا أحياء (نمشى فى الأسواق ونأكل القديد

ونحلم بتحسن الأحوال) - لكن الذى يحدث أحيانًا أننا نخشى الضحك. نخاف منه.. ننساه.. نبهت لو وجدنا أنفسنا متلبسين به.. وعندما ننسى ونضحك نقول بسرعة (اللهم اجعله خيرًا).

- نسينا المرح الجميل والضحك الجميل كما أسقطنا من حسابنا لمسة الود والجمال فى الحوار والعمل وأسلوب الحياة.

(الضحك الغليظ والمميت صار سلعة فى الأسواق - بضاعة فى السوق السوداء - ضحك أجوف صاخب لقاء ثمن فادح من الوقت والجهد وإنسانية الإنسان).

أحيانًا يختلط الضحك والبكاء.. نقول دموع الفرح لمشهد مؤثر جميل نبتهج فيه وتنساب دموعنا من فرط التأثر والمشاعر الجياشة.

الضحك الجميل هو الذى لا استكبار فيه.. ضحك متزن يشيع فى النفس ثقة ودفئًا إنسانيًا ومشاركة، ويمد بالأمل والثقة، وتبادل المشاعر وروح المرح.

الضحك المتأمل الواثق يحوى بين ثناياه الحمد ويحتضن نعمة الحياة بقوة سبحانه ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (النجم - ٤٣)

وفى ثلاث آيات بينات متتاليات تتضح دعائم بنيان الإنسان فى معجزة الخلق ونفحة الخالق المبدع.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النجم ٤٢ - ٤٤)

تلك هى الركيزة الأساسية فى معجزة الخلق إليه المنتهى والعودة

والرجوع - منه وإليه - يملك كل شيء. . ويسع علمه كل شيء. . محيط بعباده يدرك خافية الأنفس ولا تدركه الأبصار.

قيوم بالأمر. . يقف على أحوال خلقه. . ودورة معيشتهم وما يعملون وما يكتمون وأسباب الفرح والبكاء. . ومن جاهدوا فيه وذكروه. . ومن نسوا الذكر - فأين يذهبون - كل إليه راجعون وهو الذى يحيى ويميت.

﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ صيغة الماضى التى تؤكد دوام الحدث واستمراره وامتداده إلى مستقبل الأيام - كذلك أمات وأحيا.

الضحك أنواع. . مفرداته كثيرة ودرجاته بالغة الحساسية والتعبير.

أحد المفاتيح لأسرار النفس الداخلية ونوازعها وكوامن رغباتها.

هناك الضحكة القلقة التى تصدر عن إنسان عصبى متوتر.

وهناك الضحكة المتعالية التى تنطلق من إحساس بالتميز والاستعلاء.

والضحكة الهادئة التى تربت على خجل الآخرين وارتباكهم فى مواجهة أو لقاء.

والضحكة المنطلقة من الإحساس بالصحة وحسن الأحوال.

وأحلى الضحكات التى تصدر عن حس متفوق لإدراك روح الفكاهة والمرح والمفارقات الدرامية الضاحكة بين الأحداث. هذه يمكن أن تؤلف فنًا مسرحيًا راقيًا وتنمى التواصل ومشاعر المشاركة والدفء والاقتراب من الرؤى العذبة والنظرة المرحة.

أما أنضج الضحكات فهى القدرة على الضحك من النفس وبذلك

تملك إدارتها وتدريبها على التهذيب والمثابرة وعدم المكابرة والاستعلاء. .

تضحك من نفسك عندما تخسر مبلغًا من المال. . عندما تقع. . بدلاً من إنفاق الوقت فى الحسرة فى الإشفاق على النفس. . فى ندب سوء الحظ. . تضحكُ لكى تنهض من جديد وتبدأ المسير والعمل والمجاهدة. . ويمكنك مواجهة التعثر كى تتسق خطاك بعد ذلك وتمارس الأعمال بانتباه أكثر وتركيز ودقة أداء.

أحط أنواع الضحك ضحكة السخرية والاستهزاء بالآخرين.

- وقانا الله من ضحك الاستعلاء والاستكبار الذى يميت القلب - يبرز القرآن مثل هذا الضحك الخطيئة.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (المؤمنون ١٠٩ - ١١٠)

هذا هو نوع الضحك الذى يميت القلب. .

ويزيد صاحبه غلظة وغفلة. . ويجعله يمارس أثمن لحظات الحياة فى استهتار وغفلة ولا تنفذ إليه كلمات الصدق والحق. . ولا تؤثر فيه الأعمال الطيبة. .

حتى ليفتقدوا فضيلة التأمل والمعرفة واعتدال الرؤية وتقييم الناس والأفعال.

﴿أَفَمِنْ هَـذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ ولاَ تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ (النجم ٥٩ - ٦١)

فى لهوهم وعبثهم لا يفيقون على حقائق الخلق.. ولا يلتفتون للآيات ولا يحسنون فهم الأحاديث.. ويضحكون فى مواقف تستوجب الخشية والبكاء ويلهون دون تدبر أو تعقل.

تشتد عليهم اللعنة وباءوا بغضب من الله والناس وتسميهم الآيات بالمجرمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾.

(المطففين ٢٩ - ٣١)

وضحك السخرية والاستهزاء ليس وقفًا على أشخاص غلاظ خطائين.. أو مترفين عابثين.

أحيانًا يصل الداء إلى المجتمع بأسره.. ويكون من عوامل سقوطه وانهياره..

كثيرًا استهزئ بالمصلحين والدعاة وأصحاب الفكر المتقدم الجديد..

بل قد تبلغ القسوة أن يحرقوه حيًا.. ويبيحوا دمه..

- عندما أرسل موسى بالآيات إلى فرعون..

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزخرف - ٤٧)

هنا تنقلب ميزة فضل الله بها الإنسان على سائر المخلوقات إلى نقمة وأداة هدم ومحرك للقسوة والجحود والنكران.

يجب أن نعلم أطفالنا خلق القرآن، أن ندربهم منذ البداية على

التعاطف والحنان والاهتمام.. ألاّ يضحكوا من عيب جسدى أو عاهة الإنسان.

أن يمارسوا كل نشاطهم وحيوتهم بغير ضرر بالآخرين أو استخفاف بهم أو جرح لمشاعرهم.

أن يتعلموا أن الضحكة والدمعة هى تعبير عما بالداخل من حب وود وفيض مشاعر وإحساس بالجمال وأوجه الإحسان.

الابتسامة عطاء نبيل وإشعاع مودة وقربى..

فلا نهدرها، ونهدر طاقاتنا الإنسانية، ونهمل تربية أنفسنا، وصياغتها على السمو والارتقاء، وحسن الصنيع والتعبير وطاقة الخير لدى الإنسان.

بعض المؤسسات العلاجية فى الخارج اكتشفت مدى حاجة الناس للضحك كعلاج.. اتخذت شعارًا - اضحك حتى لا تضطر للبكاء - إن العالم ملىء بالمآسى والأحزان..

والبعض يأخذون أنفسهم بجدية شديدة وخطورة، حتى وكأن الكون لا يدور إلاّ بهم.. وعلى أكتافهم المثقلة تقع الأعباء الجسام.. حتى ليتحولوا إلى مرضى الغرور أو جنون العظمة والخيلاء.

- أخذ النفس بكل هذه الخطورة والجدية يكسر الإنسان ويتحول إلى خواء.. إلى كيان أجوف.

كذلك السخرية وضحك الاستعلاء والخيلاء.. تنسى الإنسان نفسه وتفقدّه قيمته الحقيقية..

والذين يجادلون فى آيات الله وكذبوا يسحبون إلى النار ﴿ذَٰلِكُمْ بِمَا

كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ يعطينا القرآن النهج السليم ويعلمنا الحكمة ويدربنا على حسن التصرف والسلوك . .

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء - ٣٧)

- والله لا يحب الفرحين.

وضرب لنا الأمثال . . عندما فرح المخلفون عن تقاعدهم عن الجهاد . . وضحكوا وسخروا من المطوعين من المؤمنين ولا مال لديهم ولا يملكون غير جهدهم . . وتوعدهم الله بعذاب أليم.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة : ٨١-٨٢)

أدق أسباب التصرف والحركة وأسلوب الحياة بين أيدينا وآيات الشفاء والصحة النفسية والعافية والاتزان نتلوها وتبرز لنا علامات مضيئة ومنارات لمسيرة الحياة . .

نختار أنفسنا من جديد ونصنع على عينيه وحسب تنزيله فى الكتاب ويدربنا على السمو الروحى . . حتى الضحك وتبسم النفس وانشراح الخلايا والوجدان حتى فيضان الدموع من الحب وفرط بالإحساس بالجمال، واحتضان الكون وتجارب الآخرين وخبراتهم.

كله موجود. . ومتاح ويبقى أن نصبح متاحين لكل هذا الإلهام.

حتى البسمة الصغيرة يمكن أن تشع نورًا وأمنًا وثقة وترتد بصيرة فنذكر الخالق وبديع صنعه وآيات خلقه ورباط الحب بيننا وبينه.

علم سليمان منطق الطير والحيوان. . وعندما استمع إلى حديث النملة وخوفها من جيوشه - تبسم ضاحكا من قولها.

وفى اللحظة التالية مباشرة لهذه البسمة المترعة المشعة. . تذكر نعمة ربه فابتهل بالدعاء وامتلأ بيقين الإيمان.

آيات تحمل ألوانًا من الضحك والبكاء. . عندما نحيط بها ونتأمل مواقفها ومعانيها ونكشف عن وجه الحكمة فيها. .

نضحك فى ثقة وانشراح ونعمل من أجل أن يشيع الابتسام على وجه الحياة وأن تكون الكلمة الطيبة والبسمة المستبشرة والعمل الذى ينفع الناس أدواتنا وسبلنا فى رحلة السعى والجهاد.

والصورة الأخيرة تطبع على وجه المؤمنين - فى الدنيا والآخرة - نعرف بسيماهم الصالحين. . وجوههم وضاءة الجبين وعليها بشر وحبور. . ويوم الحساب. . اليوم الحق ونتيجة الميزان نعرفهم. .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ (عبس - ٣٨، ٣٩)

ولنتذكر الصورة المشرقة لتلون ملامحنا، وتطبع على وجوهنا دائما.

حلم الملك

أدعو كل ليلة أن يريني الله رؤية صدق ويجعلها ربى حقًا - الأحلام حرية ووسع وانطلاق -

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ ونحس بالأمان عند اليقظة وبـاستعادة القوى والقدرة على المواجهة.

قد يتدفق سيل من النشاط الخلاق والحماس بعد هدأة النوم وتضاؤل حدة ما نحمله من هموم ويعد هذا الفاصل من الاشتباك وحالة السيولة والخفة التى نشعر بها داخل الأحلام.

(نرى أنفسنا وقد تملكتنا قوى خارجـة تنطلق خـارج حدود الـزمان والمكان نحلق فوق الجبال ونمشي على الماء ونلتقى بأحباء) من أين لنا تلك القدرات المبدعة والتصورات العجيبة وخاصيـة القفز والصعـود والنفا داخل الآخرين والجدران.

أين عرفناها وتدربنا عليها. . لابد أنها طاقات كامنة فيها وإمكانات موجودة فى الكون وبأنفسنا لم نصل بعد إليها. . لم نكتشفها. . وليست

بعد معروفة.. لكنها موجودة وتتاح لنا كل حين ابتكارات واختراعات جديدة.

وعلينا أن نستدعيها ونجليها لتكون لنا كما هى متاحة أثناء نومنا.

الأحلام مساواة.. وكلنا ندركه فى النوم، الأحلام والرؤى الملهمة.. وأشباح وأوهام..

وقد يكون الحلم واضحًا مضيئًا نتلمس إلينا بإشارات بارقـة وإيحاء مدهش.. وقد نكمل ما نعمل، وما نفكر فيه فى صحونا.. وقد نحاسب عليه أو نحاكم وتعرض الأعمال على ضمائرنا..

وقد يجىء عرض الحلم متقطعًا مشوشًا.. مجرد أضغاث أحلام.. وقد يقع محبوكًا موحيًا.

فى الحلم تتحقق المساواة.. ولكن شتان فيم يراه النائم.. كلنا نحلم وفى هذا مساواة.. لكن لكل فنية حلمه الخاص.. وقد تجاور فى المنام أقرب الناس إليك وكل يرى أجواء مختلفة.. وعلامات مغايـرة ويقوم بأعمال وأقوال بوقع خاص.

(عرض داخلى والعيون مغمضة داخل النوم.. وعرض خارجى لما فى داخل النفس وفى غشية النعاس).

الأحلام حرية ووسع . .

يمكن أن ينطلق الإنسان داخل الحلم إلى قلب الحقيقة . . يشاهدها ويراها ويتفحصها من كل جانب . .

وقد يغيب داخل حلم ساعات طوال . . ويتصل الحلم الليل بطوله . . وعندما يستيقظ يتذكر حدثًا واحدًا فقط يكون هو عمق ما يفكر فيه ويشغله فى اليقظة والواقع . .

رؤية الهم ممثلا وممسرحا هكذا ومن خلال جوانية الشخص يلهم بالإشارات البارقة لحل المشكلة ويشعره بنوع من الراحة . . لقد انتزع ما يهمه من الداخل السحيق إلى منطقة الرؤية والعرض بحرية واسعة وبطريقة قد تبدو غير معقولة وسيريالية تماما وتجريدية . . لكن الصور مفيدة لأنها تجسد الأوهام المحيطة . . وكامن الرغبات وتكدس المشاكل والمعاناة .

الحلم امتداد للحقيقة . . وكشف لها . . ويمكن أن يلهمنا بطريقة بناءة فى عمليات الخلق والإبداع .

أحيانا يتكـرر نوع من الـرؤى الشفافـة ويتدرب فيـه الشخص على مواجهة خوف ما. . وقد يسبب إزعاجا وخوفا أكبر. . لكن يعطى إشارة للذهن بأن هذا النوع من المخاوف يجب أن تـواجه. وكـأننا مـررنا فى تدريب عملى للمواجهة. . من خلال عملية آمنة وينتهى الأمر بمجـرد الاستيقاظ من النوم.

أحب أن أقرأ عن الأحلام كثيرًا. . وأدرس التحليلات النفسية لبعض الأحلام الخطيرة. .

ويسحرنى حلم الملك فى قصة يوسف الصديق. . أعود لقراءته كل حين. . انزعج الملك كثيرًا عندما أتاه الحلم ببقرات سمان وسبع أخر عجاف. . .

وسط أحضان الترف والنعيم. وفوق سرير الملك تغزو مخيلته وعروضه الداخلية وشاشته الباطنية صراع بين البقر المفترى والمستضعف. . واقتتال فيه وتنتهى المعركة بمفاجأة فنية مرعبة ومذهلة تسبب حالـة من النذيـر والتخوف حتى لقد انزعج الملك وعرض الأمر على الرأى العام.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَـٰأَيُّهَا الْمَـلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَـاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف-٤٣)

كأنما الرؤيا بحر. .

البعض يمكن السباحة فيه وعبور مسافة. . أو مساحة. .

نتـأمله. . ندور من حـولـه. . نغوص من تحتـه. . ونفـك رمـوزه

وشفراته. أو كأنما نسبح داخل الحلم ذاته.. ونجدف بين مياهه الرمزية العميقة نستخرج واقعًا حيًّا.. يفيد الصراع إلى أصوله فى الخارج.. ندرس الظروف المحيطة التى يمكن أن تنتج مثل هذا الحلم.

نعبر إلى الجانب الآخر فيه.. ونسبر مدى التهويل فى الصورة أو التشويه ونحاول أن نعود به إلى لغة المنطق والتتابع الواقعى..

يقولون إن الأحلام تجعلنا أكثر إنسانية.. ورغم أنها عملية خاصة تمامًا داخلية - ودون رقابة العقل الواعى وتدخله وقيوده - إلاَّ أنها مشتركة بين الناس.. وبرغم غرابتها وانطلاقاتها إلاَّ أن مادتها الواقع والحقيقة والأحداث المحيطة.

استطاع يوسف الصديق قراءة الحلم باستنارة وفكر جديد..

- آتاه الله علما وحكما وعلمه من تأويل الأحاديث.

وهو لم يركن إلى الموت البطىء داخل السجن.. لم يستسلم لليأس والقهر وعدم بوادر الخروج..

ولكنه كان يشحذ فكره ويناقش من حوله - حتى من الحطاة والمظلومين والمذنبين.. ويعلى تفكيرهم ويشغلهم بقضايا فلسفية هامة وعمليات منطقية ورياضية.

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف - ٣٩)

إنه يبث الدعوة فى الداخل السحيق - الرسالات بعثت لخطائين وليس لبررة- كما يقول السيد المسيح..

ولهذا لا يفقد الأمل فى الإنسان أبدًا.. وفى إقناعه.. وفى قدرته على

التوبة.. والعودة إلى الله من جديد.. وكأنه بعث من جديد..

كان يوسف الصديق يمارس عمله ويؤدى رسالته فى أصعب ظروف وأسوأ مكان.. لكنه يسعى بعلمه العظيم.

(أدركت أكثر معنى: مكنّا له فى الأرض - التمكين بالإخلاص فى العمل وثبات الإيمان وعدم اليأس من رحمة الله).

آتاه - حكما وعلما - وموهبة الرؤية العميقة النافذة وهو يجلى علمه وموهبته لم يترك نفسه للصد أو الركود والهوان بل ظل يناضل ويخلق فرص العمل ويستقوى على الشدة.

استعصى الحلم على الكهنة.. وهيئة المستشارين والمحيطين.. ورغم براعتهم ومكرهم وفنون سحرهم.. لم يحلوا طلاسم هذا الحلم العجيب.. (كانوا مثل القادة الذين يفكرون بالطريقة التقليدية أمام سلاح نووى جديد).

- كل شيء تغير فى العالم إلاّ التفكير.

والأمر كان يحتاج إلى صياغة جديدة للفكر ونسق جديد.

ومثل علماء الرياضة أيضًا لجئوا إلى الوصف دون الحل..

قالوا أضغاث أحلام وخيالات مختلطة ولا تفسير لها ولا تحليل.

- اكتفوا بوصف المشكلة وقعدوا عن حلها -

يوسف بحكمته وجلاء بصيرته كان يمثل التفكير المستقبلى الجديد ومع رسالة التوحيد - لم يقل إن الحلم كذا.. وكذا.. بل أدار معطيات الحلم نفسه..

ووجد برهان ربه حاضرًا. . إن التصـور واضح ومعبـر. . لابد أن البـلاد ستعانى من قحط وبـوار فى غلتهـا الـزراعيـة وثـروتهـا المـاديـة والحيوانية. .

سبع سنوات خصب ونماء وخير وفير يعقبهن سبع شداد يأكلن كـل الوفرة والحصاد وثروة البلاد ويجوع فيها الناس. .

قدم الحل أيضًا. . التوفير وترشيد الاستهلاك. . والاقتصاد والادخار لساعات الشدة والعوز. .

- وكان لابد أن يوضع على خزائن البلاد ويرعى مستقبلها ويخطط لها.

تلك هى الحكمة الكامنة فى - عملية التمكين له -

أعظم النعم هو التفكير المستنير الذى لا ينحصر داخل الـذات، أو يسعى إلى تحقيق نفع خاص أو يوضع فى خدمة أهداف شخصية أو يسهل تلوينه لاعتبارات ذاتية.

العلم والحكمة التى تبغى وجه الحقيقة وتسعى لنفع الناس، وترتبط بالواقع المحيط ووضع الإنسان فيه والرغبة فى عملية التقدم والتطوير.

إن الرؤية العميقـة التى تسعى لفهم الظروف وتسعى لتبنى تصـورا للواقع بوسعها أن تمد للمستقبل وتحفظ حقوق الناس أجمعين.

نعيد التلاوة ونكررها دائمًا ونتوقف لدى حلم الملك المثير. . وبقـدر ما هو حلم خاص. . إلاَّ أنه متصل بحياة الآخرين. . ورغم أنه ملك. . إلاَّ أنـه يحمل همـوم الناس كهمـه الخاص وحتى عقله البـاطن مشغول باحتياجات الناس ومستقبل العيش لهم ومعاناتهم.

ورغم أنه كملك يستطيع أن يأكل من كل الثمرات . .

ولا يعانى من أى نقص أو قحط . .

لكنه لا شك يحمل مسئوليته وأمانة عمله فى تدبير أمور الناس .

لذلك دار الصراع داخله بين الحلم والحقيقة .

وعندما يستيقظ يتخذ أولى خطوات الحل . . ويطلب الفتوى فيه . .

ويظل الدرس قائمًا . . والصورة موحية . . وأوجه البحث والدراسة والمقارنة مفتوحة ومتاحة وربط العمل بجوهر الإيمان والقيم ضروريًّا وشافيًا .

هذا الرقم المدهش (٣)

فى البدء كانت «اقرأ»

نغمة الترتيل الأولى . . والحركة الأساسية فى إيقاع حياتنا.

وأنا تبهرنى دائمًا الحروف والأرقام . . منذ البداية عندما كنت صغيرة أتطلع بشوق وحب إلى المعرفة.

(تعلمت أن أبحر فى جوف الكلمات . . أغوص إلى عمق قاموس البحر فيها . . أرتوى من سريانها العذب وتدفقها المثير . . وأكتشف لآلئها الثمينة والمعنى الكامن فيها).

تعودت أن أرتقى سلم النغم وأصعد درجات الحروف والأرقام . . تتولد لدى أفكار جديدة ويمكننى مجاوزة الواقع والتحليق مع الخيال والأحلام، أطوف بمدن غريبة ومواني بعيدة وأماكن خارج قبضة الزمان.

(كانت مدرسة الحساب تقول لنا أوجدوا علاقة دائمًا بينكم والأشياء. ادخلوا مع المفردات والأرقام فى حوار، وأقيموا تصورًا ورسمًا واجذبوا

خيوط ترابط ومودة وعلاقات مشاركة ومحبة.

ويذلك تكتشفون متعا كثيرة وأسرارا بديعة).

«إذا أقمتم علاقة بين الأرقام ذاتها سهل عليكم حفظها والاستنتاج منها وتثبيتها فى الذاكرة مع تصوراتها الجديدة».

حقا إن للأسماء والأرقام لسحرا

كل له سره ومضاعفاته ومفاتيحه وإيقاعه الخاص وتناقضه الباطنى تتدرج فى حركة صعود وهبوط.. تتزايد تتناقص.. تنقسم على نفسها وتتضارب.. تتوالى.. وتتتابع وتتداعى.. والتى تقف ثابتة.. جامدة وأخرى تنطلق كالصاروخ. لها وقعها وموسيقاها الكامنة والبارع من أعمل فيها عقله وتفكيره وأطلق قواها المبدعة وحقق للناس متعة وأسلوب حياة وخلقًا جديدًا.

تلك التى تكون وقائع مادية وموجودات قائمة بذاتها أو موضوعات فرضية ورؤى مجازية أو تصورات تجريدية.. كلها تبعث على التفكير والتأمل والاستنتاج - وتقيم القواعد العلمية والنظريات وتطلق قوى الإبداع والاكتشاف وتعطى دلالات ومؤشرات وترصد تحليلاً للواقع وتصورًا لمستقبل الحياة.

العدد ثلاثة (٣) ساحر جذاب

الرسم فيه والتشكيل والتعداد.. الجزء فيه.. الثلث وثلثيه لها وقع أخاذ.

ذلك التكوين الدرامى الحاد..

تكتبه.. تصوره.. تخطه.. ترسمه.. تنطق به أو تردده فى كل الأوضاع يبرز معنى، وينبض حركة، ويكشف عن نسق وسياق.

قد يكمن فى محيط واحد.. مساحة محددة أو ينطلق سفينة فضاء متعدد المراحل ومحطات الوصول والانطلاق.

(ثلاثة فى اللغة تبدو مرحة مراوغة.. تؤنث مع المذكر.. وتذكر مع المؤنث!)

تتراص فى ثلاثة مستقيمات.. آحاد.. أو تمثل رافعة مركز الثقل فيها فى الوسط أو عند أحد الأطراف.

وقد يستوى خطا لينا تحدده ثلاث نقاط. أو ينطوى بحركة مرنة على نفسه ويعانق أطرافه ويكون قمة وقاعدة وارتفاعا.

- المثلث الجميل - (مثل الهرم والجبل) القمة فى الأعالى وعلى الجانبين يصعد الإنسان.. يسعى ليرتقى سلم الحياة والأعمال وليبلغ الأسباب (يظل على السطح فى معاناة أو ينحدر إلى الحضيض والهوان وقد يتجه نحو الذروة بإصرار وجهاد)

- ولا عجب أن يكون المصريون القدماء أول من برعوا فى الرياضيات وأسسوا علم الهندسة وأقاموا الأهرامات ووصلوا إلى التوحيد - وعنهم أخذ فيثاغورث الحكمة وأقام نظريته الساحرة والمثلث الذهبى لعلم الهندسة (وعاش بين الكهنة أكثر من عشر سنوات) المثلث أكمل الرسوم الهندسية - يحيط وتر برءوسه الثلاث فيكون دائرة. . ويقسم المربعات والمستطيلات.

- لديه خاصة التكون والتشكل على أوجه ثلاثة. ومجموعة زواياه ثابتة على أى نحو كان - قائم الزاوية مرة. . ومتساوى الزوايا والأضلاع. . ومتساوى الساقين والزاويتين بينهما.

المثلث أجمل الأشكال المجازية والحقيقية. . يثبت القواعد ويحقق الفرضيات ويبنى القدرة على الاستنتاج. وميزة التلخيص والتركيز.

الأضلاع الثلاثة الأخاذة تصل علم الهندسة بفن الموسيقى وتصدح بالتجانس والتوافق والانسجام بين مفردات الحياة ومعطيات الوجود وقدرات الإنسان.

لعبة المثلثات مشوقة وذكية وتقيم الفروض الذهنية وترتب عليها النتائج والبراهين والاستدلال. تؤسس القوانين العلمية التى يقوم عليها الكشف والاختراع وتقديم الحلول العملية لاحتياجات الإنسان.

لعبة المثلثات الذكية تعلم التفكير العلمى والمنطق الرياضى والصورى وتثير النشاط الخلاق.

الرقعة التى يدور فوقها الصراع الدرامى فتتضح الرؤية أكثر ونصل إلى

لحظة التنوير والمعرفة - ونكتشف حقائق كنا نجهلها من قبل وفى صور هذه المعرفة يكون التطور والتحول واتخاذ الموقف الجدير بالاختيار.

التركيب المنظم.. رمز التوازن والاستقامة والعدل «الميزان» كفتان وقائم ثابت تتعادلان.. أو قاعدة ثابتة لتتوازن الأثقال. الميزان - يقيم الوزن بالحق.. ويرسم الحركة الصحيحة والتوازن داخل النفس وفى المحيط الخارجى.

وتقول الأمثال الشعبية.. والحكم القديمة المتوازنة أن «الثالثة ثابتة».. وفى اللعب أيضا نقولها ونحن صغار فى سن المرح والبراءة نقولها تلقائيًّا وبعفوية محببة فيكون لها قوة القانون ونفاذ العرف السائد.

«الثالثة ثابتة» - أى أن الفوز ثلاث مرات متتالية أو الهزيمة يعنى أنها ثابتة ومؤكدة وليس من قبيل الصدفة أو الحظ أو الخداع.

ويقولون أيضًا إن الكتاب الثالث هو الذى يساوى فى حياة الكاتب ربما الكتاب الأول يحكى فيه الكاتب حكايته أو تجربة مرت به.. ربما هى مجرد رغبة أن يلقى للناس قصته.. والثانى ترديد نفس التنويعات على ذات القصة.. أو المزيد من السرد والحكى ولكن الكتاب الثالث يعنى أن المؤلف لديه ما يقوله حقًّا ويعبر عن أفكار جديدة ووجهة نظر فى الأحداث والحياة.

المقطوعات الموسيقية مؤلفة غالبا من ثلاث حركات. الموضوع وتطوره وخاتمته التى تتصل ببدايته وتوالى تصعيدها.

كذلك القصة والرواية والمسرحية وفن كتابة المقال. موقف أو

حدث. . لحظة إنسانية بارقة تبدأ من نقطة معينة وتتعمق وتتكثف ذراتها حتى ليبرق المعنى فى النهاية أو توحى بإحساس ما.

(أفلاطون كان يعتقد أن دراسة الرياضيات تقرب المرء من الآلهة. وينقش عند مدخل أكاديمية لا يدخل المكان من ليست له معرفة بالرياضيات والهندسة) وفى الفلسفة نقول الحكمة الإغريقية القديمة بنظرية الوسط السعيد وأن الفضيلة وسط بين رذيلتين.

ويقول بحارى الجميل «الخروج إلى البحر امتحان شجاعة وقدرة على المواجهة والالتحام» الرحلة الثالثة هى التى يكتب بها «ربانا لأعالى البحار» - ربما يخدمه البحر فى الرحلة الأولى ويكون الجو صافيًا. . والرحلة الثانية قد يبقى البحر مواتيًا لم يجر عليه هيج الرياح والعواصف والأنواء. . لكن الرحلة الثالثة فلابد أنه على طول هذا المدى قد صادف مأزقًا. . حدثًا. . اختبارًا لعلمه فنون البحر ومخابيه وما يجرى فيه من أهوال، وهى جواز المرور للقيادة وشهادة الربان.

الأرقام يمكن أن تقدم حلولا لما يدور فى أذهاننا من قضايا ومعضلات. وتحيل أى مشكلة إلى عملية رياضية ومسألة حسابية. . معادلة قد نقتسم أو نختصر من أطرافها أو نعلى معدلاتها ونعيد ترتيب حدودها لنحل المعادلة الصعبة ونصل إلى الإثبات والبيان. نحلها حتى من خلال إعلاء التناقض وبناء تصور جديد واكتشاف نسق جديد من التفكير. تعلمنا القدرة على التركيز وتلخيص أى موقف وتحليله إلى عناصره الأولى. عدت أتأمل الرقم من جديد.

تذكرت وأنا أشهد إيقاعه المتوهج المحيط بحركة الخلق والتطور والارتقاء وفى العلم الحديث والمنطق والرياضيات، ومجال الفنون، وقوى الخلق والإبداع أننى أستشهد بآيات بينات من القرآن. وجدتنى أعيد ذكر الرقم من خلال آيات بينات. . وأنه ذكر كثيرًا بين السور والآيات - وجعل الله لنا آية - ويعلمنا عدد السنين والحساب. واصلت السعى والترحال والبيان وبرز الرقم المدهش متوهجًا زاخرًا مشبعًا بالحركة والدلالة والإيحاء.

يصطفى بأضلاعه ورءوسه الثلاث - متصلة ومتطابقة ومتكاملة يحدد زوايا الميل، ووجهة الاستقامة وأسباب الحدة وبشارة الانفراج. به الكثير من الأرقام - بل يشملها فى مجموعها وبداياتها الأساسية. يذكرها بالعد والإحصاء والأسماء.

يوجد (الواحد. الأحد. الفرد).
وتوجد ثنائيات المسميات والأحكام وجمل الختام.
كذلك الأرقام خمسة وسبعة وثمانية وتسعة عشر. .

لكن الرقم «٣» ومضاعفاته وشكله الهندسى والتجريدى يلعب دورًا هامًّا وأساسيًّا بسياق الآيات.

ويمسك بإيقاع الموسيقى المشعة بين الحروف والكلمات ويصل بنا إلى ذروة التأمل وقمة الكشف والمعرفة والتشبع بنور الآيات. يبرز دعائم الإيمان وحكمة إقامة الميزان، ويكشف ذرا البشارة ومثلث الرعب فى السراء والضراء وحين البأس.

ويرسم دعائم الاستقامة وأسس العمل الصالح يحدد المعنى ويوجزه يجعله حاضرًا بين أيدينا محدد الزوايا والأركان، ويعيننا على تصور مضىء وقدرة على الفهم وحسن الإدراك.

القرآن مقام على أساس رياضى مؤهل وحساب دقيق وكل شىء بقدر وميزان. يقيم القرآن الميزان فى كل شىء فى النفس والعقل والمعاملات والعلاقات بين الناس. «يدعونا أمة وسطًا» التوازن والاتزان والاعتدال على مستوى الفرد والجماعة لا إسراف ولا تقتير. . لا تفريط ولا تعصب. . قوامة واعتدال فى كل شىء ووقوف بجانب الحق والعدل.

ويجعل الله لنا آية. . بينة ومبصرة وحاضرة. .

الرحمن سبحانه

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن : ٢ - ٤)

تلك النغمة الأساسية للكون متتاليات منظومة نورانية. . ثلاث جمل موسيقية تصدح بآية الخلق فى النفس والآفاق.

وهدف التنزيل.

ترسم الحركة. . ونعمة الحياة. . ومتعة العيش النبيل.

تتفتح كل جملة فيها وتبث أريجها، وتتحول إلى جنات ذات بهجة وضياء.

ترتيب معجز وتتابع متألق. .

- علم القرآن تسبق خلق الإنسان ثم يتعلم البيان - تلك حكمة

خلق الإنسان وتحميل الأمانة وإطلاق حرية الاختيار لديه.

جاء ليتعلم ويسعى فى طريق النور والمعرفة.. ويعرف حلاوة الإيمان والاتحاد مع الكون والنور الأعلى.. والتحقق بالحب. جعله ناطقا.. يملك قدرة التعبير والتفكير وموهبة البحث والفهم والوعى.

نزل القرآن تبيانا لكل شيء ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدى وَرَحْمَةً﴾ (القصص - ٤٣)

يجعل الله لنا آية.. ساطعة واعدة. أجزاء القرآن ثلاثون عدد السور مائة وأربعة عشر. معظم السور مجموع آياتها من مضاعفات الرقم ثلاثة. أقصر سور القرآن عدد الآيات فيها ثلاث.

تتدرج الفكرة الرئيسية ويحيط بها شاهدان.. أو تكشف عن قاعدة أساسية يبنى عليها ضلعان.. آيات كثيرة من ثلاث حركات.. تنبض بإيقاع ثلاثى محدد.. مميز واضح المعنى والبيان.

معجزة خلق الإنسان آية.. خلق فى أحسن تقويم، وعلمه الأسماء، وسخر له كل ما فى الكون.

خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم سواه رجلاً - أى إنسانا سويًا ليكون فى الأرض خليفة.

مراحل الخلق ثلاث ومفردات الإدراك الأساسية أيضًا ثلاث

﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

سواه ونفخ فيه من روحه.. آثره بميزة التفوق ومنزلة التكريم وجاءت معزوفة النور ومعنى النفخة المباركة:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر-٢٩)

تدرج ربانى على سلم النغم وآية الخلق وحكمة التكريم.

نغم من نور صعودًا وتوازنًا وإلى عمق القرار الحكيم رقة المناجاة والعزف الأثير فى سيمفونية الكون وبين خلق الله وفعل الأمر الصادح الحاسم وذروة فاصلة.

وهنا بدأ الصراع بين الإنسان وإبليس.. هنا التكليف وعظم المسئولية والاختيار العظيم. أن نكون من حزب الله.. أن ننمى النفخة المباركة ونزيد مساحة النور ونتوجه إلى الله.. أم نتبع خطوات الشيطان ونقع فى أسر الغى والضلال.

وجعل له السمع والأبصار والأفئدة. ثلاث حواس رئيسية لعملية الإدراك وموصلة للمعرفة ثالوث الوعى والانتقال إلى العمل. نلاحظ ذكر «السمع» مفردا.. وصيغة الجمع للأبصار والأفئدة السمع محدود المدى.. محدد المكان.

وهو القناة الموصلة إلى العقل.. المجرى الأساس فى عملية التفكير.. («رجل ضرير حكيم يقول إنه يرى بسمعه».. وسيلة إدراك مفتوحة على العالم ويمكن معرفة الأماكن والاتجاهات من تحليل الأصوات التى تنفذ من فتحة السمع)

العيون تمتد إلى بعيد. . وتؤدى مهمة البصر وتصل إلى حد جلاء البصيرة - ويمكن عندما يكشف عنها الغطاء أن تكون نظرتها حديد - والأفئدة للناس أجمعين. . المؤمن من ينقى فؤاده من الغل ويزيد من طاقة الحب وبذلك لا تكون مجرد حاسة أو عضو. . إنما طاقة مشعة نافذة تضيء وجه الحياة.

وتتأكد تمام النعم بصيغة المفرد مرة أخرى وبعدها مباشرة

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء-٣٦)

نعم علينا أن نجليها ونزيد من فاعليتها ودائرة تأثيرها ومداها. . ونستعملها من أجل الخير والنماء والإحساس بالجمال وآثار الحمد.

وعلينا تقع مسئولية عملنا. . فيم استعملناها وفيم أنفقنا من قدساتها. ويوم القيامة تفر من أسرنا وتشهد علينا.

آيات بعد آيات تأتى كما النهار - مبصرة - معلنة باهرة. . ثلاثية الإيقاع.

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان-٤٧)

معزولة الخلق مستورة. . آمنة. . فى حنو الجوف والرحم. تصدح نغماتها بنور كاشف وبيان بالغ ونسق بديع ترسل أنغاما مرئية. . نابضة بالحركة مترعة بتثبيت الإيمان.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ (الزمر-٦)

وأهم قوى الإدراك والمعرفة أيضًا ثلاث.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (النحل - ٧٨)

ومراحل العمر أيضًا ثلاث الطفولة والشباب والكهولة.

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (الروم - ٥٤)

كون متناسق متناغم يقيمه نظام حسابى دقيق.. وحركة محسوبة منظمة واختلاف الليل والنهار.. والشمس والقمر - ولنعلم عدد السنين والحساب - وأن عدد الشهور عند الله اثنا عشر - يتكرر الرقم ٣ كثيرًا.. وفى مواضع عديدة.. وتتألق مضاعفاته وتعلى النغمة الأسياسية وتتدرج إلى أعلى سلم النغم. آيات الشفاء ست وخلق العالم فى ستة أيام

﴿جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان - ٦١)

سماء بلا عمد وأرض الله واسعة - وألقى فيها رواسى أن تميد بنا - عليها نحيا وفيها نموت ومنها يكون الخروج.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه - ٥٥)

حركة دائبة متصاعدة.. ثم طابور العرض يوم القيامة. صفًا والمجيء كما الخلق أول مرة.. سيمفونية الخلق والموت والبعث

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف - ٤٨)

(الحاضر والماضى والزعم الممتد إلى المستقبل فى قبضة واحدة) المجيء على هيئة بداية سلم الخلق (وعرضوا) صيغه الماضى التى تؤكد حدوث المستقبل.. وماضى الزعم أيضا أن لن يكون هناك موعد.. ولنا فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين:

والمفاجأة بوجود الموعد.. الوصول من الواقع إلى غيب المستقبل.

﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الميِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّت مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم - ١٩)

ويعد هذه الآية بالذات من سورة الروم تتبعها ست آيات تبدأ كل منها ﴿ومن آياته﴾ تعدد فى نغم متسق معجزة الخلق والوجود.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم - ٢٠)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم - ٢١)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم - ٢٢)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الروم - ٢٣)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم - ٢٤)

وتحذير مثلث الأركان.. النتيجة مترتبة على المقدمات..

﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم - ٢٨، ٢٩)

وتنسحب الصورة على الذين يمكرون السيئات - فى الماضى والحاضر وتمد إلى المستقبل - (ونسميها الآية المعجزة) ببساطة التكوين.. بعفوية الصورة وبدائيتها وصراحتها - وقد رأيناها رأى العين - وسمعنا بها بأماكن كثيرة ومن أخبار الأولين وستحدث كثيرا.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل - ٢٦)

ويلغنا الحاجة إلى الدعاء والابتهال وشحن الطاقات والامتلاء بالثقة.. ونجوب زوايا جديدة عتيقة بارزة.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل - ١٩)

ويجسد الخالق سبحانه رموزًا ثلاثًا.. قمم شاهقة شاهدة على عظيم

صنعه وقيومته ووحدانيته.

﴿سُبحـانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف - ٨٢)

نذكر ثلاثية التكوين.. السماء والأرض وما بينهما ويضيف بعدها ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزخرف - ٨٥)

تصور داخلى على شكل مثلث صغير يقيم قاعدته الأساسية تنزيهًا وتأسيسًا لرب العرش العظيم ولديه علم الساعة سبحانه.

نفس تصورنا الإنسانى المتواضع للنظرة الهندسية التى تشهد بجمال التكامل والتكوين (الزاوية الخارجة عن المثلث تساوى مجموع الزاويتين المتقابلتين - ماعدا المجاورة لها) القاعدة الأصلية الإيمان بالله رب العرش العظيم ولديه علم الساعة.. والأركان لـه الملك - السموات والأرض وما بينهما - كل شىء وتتأكد الصورة ببساطة عظيمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ﴾ (لقمان - ٣٤)

سيمفونية الخلق ثلاث مراحل - يومان لكل مرحل - فى ستة أيام حركات مواتية طيعة على ثلاث دورات متداخلة ومتناغمة وحتى حلقة الختام

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (الروم - ٢٥)

آيات عذبة حنونة دافئة تربت عليك وتمسح عنك الوجع وتطهرك من اليأس.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (آل عمران-١٢٠).

ويصف سبحانه قوة المناضلين فى سبيل الله - ما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا -

ومن تجارب الأنبياء والرسل يبرز التسلسل الثلاثى والوقفات الموحية المحددة الثابتة البناء والارتفاع والتى تبلغ قمم الإقناع والوضوح والبيان.

سيدنا إبراهيم خليل الله.. يصوغ دعاءه بود وبيان.

﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (إبراهيم - ٣٧)

إنه يصف الحال.. يعرض الحالة.. يعطى تقريرا للطاعة والقيام بأمر الله..

ويسكن إسماعيل وأمه هاجر بأرض قفر بلا زرع ولا ماء.. يسلمهم إلى القفر والعراء والأرض العسيرة.. عند البيت الحرام..

ذلك ليقيموا الصلاة والتوحيد - هو الهدف الأسمى للحياة.. رغم كل المعاناة ثم تتندى الكلمات بالرجاء والدعاء أن يهيىء الله لهم أسباب لقاء الناس.. وميل القلوب لسكنى المكان وتعميره.. تحبهم وتركن إليهم وينزل عليهم القدير من الماء ما ينبت الزرع ويؤتى الثمرات.

دعاء متماوج الأركان يبتهل إلى الله بالطاعة وتقرير الحال.. ويقيم

الهدف الأسمى لتلبية الأمر والنداء والخضوع لأمر الله - ثم يتبع ذلك بالمطلب والدعاء.

والمسيح عليه السلام.. جعله سبحانه هو وأمه آية للعالمين.. وجيها في الدنيا والآخرة. وجعل له آيات بينات.. تكلم في المهد صبيًّا:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم - ٣٣)

والذين يغلون في دينهم ويكفرون بربهم يقولون ﴿ثالث ثلاثة﴾ تعالى الله سبحانه عما يشركون.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾ (النساء - ١٧١)

ويبرز ثالوث الاصطفاء والفضل والحكمة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران - ٧٩)

حقًّا ما كان لبشر يهديه الله ويصطفيه.. يجعله آية ويأتيه الكتاب ويؤثره بالحكمة ويبعثه رسولاً ليبلغ رسالته - يكون بشرى ومحبة وسلامًا - يهديهم إلى صراط مستقيم ومصدقًا لما بين أيديهم - أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ثم يقول للناس بعد ذلك - كونوا عبادًا لي أو اعبدوني من دون الله.

إنما يهديهم الوسيلة الحقة وهى علم الكتاب وتعاليمه والعمل به ليكونوا أحباء الله وليكونوا ربانيين. علم الكتاب وإقامته وجعله منهجًا وأسلوب حياة هو الوسيلة أن يكون الإنسان ربانيًّا.

يسعى فى طريق الحب.. يجعل نفسه متاحًا للنور وللحكمة.

علم الكتاب يؤدى إلى العمل الصالح.. وغاية العمل نفع الناس وغرس المحبة والمودة تعليم الكتاب من مهام الصالحين أهل العلم والحكمة.. يفيض على الآخرين بنور العلم ونفاذ اليقين وثبات العقيدة.

يكون هو نفسه قدوة حية.. وبشرى موحية.. وحركة سعى دائبة للترقى والتقدم وانطلاق قدراته الخلاقة. هذا هو الطريق لحب الله.. فالمحب يكون حريصًا على رضى محبوبه ومعرفته والتوجه إليه وفعل كل ما يحب ويرتضي والابتعاد عن كل ما يغضبه..

هذا هو المقياس الصحيح والمبدع حقًّا..

أما المفارقة المضنية بادعاء حبه ثم نتقرب إليه من خلال أوليائه أو بشر مثلنا أو تأليه من جعله لنا رسولاً نبيًّا.. أو نجعل له أندادًا..

فهذا شرك وظلم كبير.. يتنافى مع دعوة الحب ورسالة الحق والخير.

الكتاب للدراسة والتعليم وإقامة أحكام الله.. وهو يصل بنا إلى الحكمة والمعرفة وإلى العمل الصالح ونصنع على أعين الله.. يكون لنا الخلق العظيم.. والسلوك القويم ونحقق مع أسمائه الحسنى.. وبذلك نكون ربانيين حقًّا.

وزكريا عندما وجد عند مريم رزقًا.. وقالت هو من عند الله - تذكر

جلال القدرة وسعة العطاء وموفور النعم لمن يصطفيه الله. ومن يسلم وجهه لله.

وهى لحظة بارقة وفائقة من الحياة - كأنما طاقة نور قد أضاءت داخل ذهنه وطيات تفكيره.. لحظة يستحب فيها الدعاء والمناجاة.. دعاء يصدر من شغاف القلب وبحرقة الرغبة فى تحقيق حلم جميل ومطلب أن يكون للإنسان ولد..

﴿هنالك﴾ فى تلك اللحظة النادرة.. وتتجلى قدرة الله وآياته يسلم زكريا وجهه لله ويهتف بأعز أمانيه.. ألا يدعه الله فردًا.. ويهب له ذرية طيبة..

كان قائما يصلى فى المحراب.. ارتفع على متن الدعاء.. تضرع حتى ذوبته الكلمات ووسعته حنانًا ونورًا.. وشغل بفيض النور..

أفاق لنداء الملائكة أن الله يبشره «بيحيى».

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران - ٤١)

كانت الآية أن يصوم عن الكلام - ثلاثة أيام.. وإذا دعته الحاجة لمقولة بسيطة فليكن ذلك رمزًا.. مجرد إيماءة صغيرة.. أو حركة بسيطة.

ذلك ليعود إلى حالة التبتل وإسلام الوجه والنفس إلى الله..

إلى تلك اللحظة المتوهجة.. التى وصل فيها إلى التوحد والعبور إلى فيض النور والمحبة الغامرة وتقبل الدعاء.. وحلاوة البشرى ونفاذ كلمة الله.

عودة إلى التسبيح والذكر وتقديم آيات المحبة والامتلاء بالرضى والنور. (عند حدوث أمر جليل نكون فى حاجة إلى أن نخلو لأنفسنا.. نتدبر الأمر.. ونتعمق التفكير ونطيل التأمل والتبصر).

تكفى إشارة أو لفتة للتفاهم فى فترة الصيام والعكوف هذه..

لا مكان لجدل ونقاش واختلاف الآراء.. والتصديق أو الخلاف.. داخل الوحدة الحانية بالأنس بالله.. ويفيض المحبة والاستجابة.. نصل إلى قلب المعنى وجوهر الفكرة ويساعدنا على التواصل والوصول التسبيح والاستغراق وإسلام الوجه لله.

وهبه الله «يحيى» وجعله ربه تقيًا ورضيًا وناداه أن يا يحيى ﴿خُذ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم - ١٢).

هكذا دائما علينا أن نأخذ ما آتانا الله بقوة.. ونلتزم بما فيه.. ونجاهد به جهادًا كبيرًا هكذا جملة من ثلاث كلمات تهزك إلى العمق.. وتمتلىء بالقوة.. وتشحن أجهزتك بالثقة والثبات ونور الحق.

ويونس الرسول عليه السلام عندما ذهب مغاضبًا وأبق إلى الفلك المشحون ألقى به إلى البحر فى ظلمات ثلاث.

هذا التوافق والانسجام بين التصوير والتجسيد وإيقاع الكلمات يبهرنا بشدة ويجعلنا نتوقف لديه لنتأمل ونحلل المواقف والحكايات والصور المتشابهة ويتجلى المعنى والإيحاء.

تنقلنا الكلمات إلى آفاق بعيدة وقمم أخرى موحية ولحظات وأحداث متشابهة أو متناقضة.. إلى ذرى تنوير بارقة باللون والحركة وجلاء

المضمون والمعنى. نستدعى ظلمات أخرى فى بطون الأمهات - ظلمات هنا وظلمات هناك ثلاثية الطبقات.. وعلى ثلاث درجات..

ولكن شتان بين قتامة اليأس وظلمة البحر وقلب الحوت وبين ظلمات حانية دافئة وواقية تلف جنينا ينبض بالحياة تحوطه وتمنع عنه الصدمات والهزات. وهكذا تبرق لدينا الآيات سافرة موحية.. وتنطلق الشرارة المقدسة فى محتوى التفكير فتنظر بعيون جديدة ورؤية عميقة من أثر تردد الرقم وإيقاعه ونبض داخل الظلمات.

ونوح عليه السلام.. جعل الله السفينة آية.. كان يصنع الفلك بوحى من الله وعلى عينه - وعندما جاء أمر الله وفار التنور.. انهمر ماء المطر.. وفتحت عيون الأرض..

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَملْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر: ١١-١٣)

لوحة كاملة عاصفة تكتمل صورة العالم فيها من جوانبها الثلاثة.. عيون السماء مدرارًا وعيون الأرض تتفجر بماء منهمر والفلك المشحون من قومها تقدم حصن نجاة للمؤمنين ولبدء حياة من جديد.

وناقة «صالح» آية أمرهم أن يدعوها تأكل فى أرض الله.. ولا يمسوها بسوء.. وإلاّ يأخذهم عذاب ﴿قريب﴾ فعقروها

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود- ٦٥).

توعدهم بالعذاب القريب . .

قريب فى الدنيا - فى الزمن القائم بهم .

ثم يردون إلى عذاب الآخرة . .

تركهم يتمتعون بعصيانهم وكبرهم - ثلاثة أيام .

ثلاثة أيام . . وحدة زمنية محددة . . يوم واحد قليل جدًّا . . يومان قليل أيضًا . . ولكن ثلاثة أيام يظنون أنهم قد نجوا من العقاب . . ويستكبرون ويفرحون وقد يأخذهم القلق والتوتر . . هل يتركون . . هكذا دون عقاب . . أم إن عقابًا هائلاً سيقع عليهم . .

يذوقون عذاب الانتظار والتوتر والفزع المرتقب .

ثم تأخذهم الصيحة هكذا وهم فى ديارهم فيظلون جاثمين .

وحتى الشخصيات العادية التى مرت بالقصص القرآنى يرشدنا الله بهم إلى التصرف السليم والسلوك الإنسانى القويم وترك الجشع والبخل والتقتير . مثل أصحاب الجنة الذين انطلقوا إليها وهم يتخافتون ويقسمون ألاّ يدخلها عليهم فى يومهم مسكين .

وقال «أوسطهم» ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم - ٢٨)

أن تستغفروا عن سوء القصد والنية . . وهذا يدل على أنهم «ثلاثة» . .

وأوسطهم كان أقرب للصواب والمشاعر الطيبة وقال لهم استغفروا حتى لا تغضبوا الله .

وعتاة المستكبرين - قارون وفرعون وهامان .

وتتكرر الوقفات. . وتبرق جمل كثيرة من كلمات ثلاث. . جامعة وشاملة وحاسمة. لها حضور وتقع على القلب ويهتز لوقعها الحس والتفكير ونستقبلها شاخصة. شاهدة تعلن أن كل شيء فى الكتاب قائم على نظام محكم ودقيق ومبين. وتتوالى حلقات الخلق. . ومتتاليات النغم بتناسب وتوافق وعلى نسق من الإعجاز البيانى.

وتتفتح الكلمات بموسيقى نورانية تنسكب إلى النفس وتنفذ بجمال وقوة. متتاليات ثلاثية التكوين - يرسل السماء مدرارًا.

﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح - ١٢)

حلقات من الخلق مترتبة على بعضها قائمة على نظام هندسى بديع.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهار وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ (الجاثية - ٥)

وأحيانًا تأتى صيغة فعل الأمر مترعة بالحب والنصيحة والإلهام.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جمِيلًا﴾ (المعارج - ٥)

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة - ٦٣)

﴿وَاهْجُرْهُمْ هجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل - ١٠)

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب - ٢٨)

ومع النساء يطالب بالعدل ويحذر من ضعف العاطفة واتباع الهوى

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ (النساء - ١٢٩)

وفى الصلاة عند الحرب

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء - ١٠٢)

وفى ذكر الله سبحانه فى كل الحالات وشتى الأوضاع.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء - ١٠٣)

ويبصرنا إلى تدبر الأمور وأخذها بدقة وتمعن..

هل يستوى الذين يقيمون الدين.. يلتزمون مبادئ الصلاح والتقوى والعمل الخلاق الذين يكونون وقيمهم شيئًا واحدًا وأسلوبًا واحدًا وحركة فى الحياة نافعة وخيرة.. من يجاهدون فى سبيل الحق وإعلاء كلمة الله.. وإرساء قواعد النبل والتضحية والفداء هل يستوون مع غيرهم..

من يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء والأطماع ويبخسون الناس أشياءهم ومواهبهم ويجعلون لله أندادًا.. ويستكبرون فى الأرض بغير حق.. هل يتساوون!

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرةَ وَيرجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر - ٩)

الصورة واضحة والمعطيات مرتبة والنتيجة واضحة مؤكدة. القنوت آناء الليل بالقيام والسجود كأنها قاعدة أساسية لحركة الابتهال والقربى ومسيرة الحب القاعدة التى تنطلق منها الحركة العميقة فى الأداء والتمثل والتوحد والاندماج مع النور.. هى ترك الجسد لينساب فى وقع الحب الكامن فيه والتعبير عن طاقة الحب المشعة من أعماق رأسه على الأرض أم محلق فى عنان السماء..

هو يتبع ذبذبات الحب وذوبان المحب..

هل يستوى ومن لا يقوم بمثل هذا العمل..

من لا يدرب روحه ولا جسده على هذا الأداء الجميل..

من لا يريدون وجه الله ولا يتقون..

من يمشون فى الأرض مرحًا ويستكبرون بغير حق.. وعلى قلوبهم أقفالها وعيونهم لا يسمعون بها وفى آذانهم وقر.

المقارنة محسوبة.. ومثلثا الحالة لا يتطابقان.. والنتيجة معروفة ومعلنة ومن تهزه الصورة فالباب مفتوح لتغييرها وتحسينها والتحول إلى الله ميسور.

وكفارة الحلف والأيمان صيام ثلاثة أيام. وثلاث صفات بارزة فى عباد الله الصالحين.

﴿اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (المائدة - ٩٣).

وتستوقفنا جملة محددة من ثلاث كلمات تحتوى على قانون عام

﴿يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنفال - ٧).

وفى ختام مشهد يوم الزينة لقطة جامعة بليغة معبرة فيها كشف صناعة السحر واستسلام السحرة أمام الإيمان.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (الشعراء - ٤٦).

وعتبى من الله وبيان:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ (النمل - ٦٣)

وأهل الكهف يختفون بإيمانهم ويجعلهم الله آية ترى ما عددهم وكم لبثوا لايهم العدد كثيرا وإنما الموقف هو الأهم ومعجزة بعثهم وذلك على الله يسير. ويبدأ حسبان العدد بثلاث على الأقل..

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ (الكهف - ٢٢)

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف - ٢٥)

إنهم فتية آمنوا بربهم واعتزلوا الطغاة.. وهيأ الله لهم مرفقا ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (الكهف - ١٤).

عندما قاموا ثبت قلوبهم وضمد جزعهم فذكروا الله ولن يعودوا إلى عبادة الطغاة..

ذلك هو بلسم الشفاء والثبات أمام المحن.. التوجه إلى الله.. الاعتصام به - ويربط الله على قلوبنا - يشدها ويقويها ويحيطها بالصبر والشجاعة والثقة.. مثلما حدث لأم موسى.. ولأنه جرح ضمده الله لها - وربط على قلبها.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص - ٧).

موقف مزلزل لقلب أم.. ترضعه وتنتزعه بيديها من مكانه بجانب قلبها وتلقيه في اليم.. تسلمه إلى النهر العظيم.. وتثبت في الموقف

فلا خوف ولا جزع ولتثق بوعد الله سبحانه بعودته إليها وجعله من المرسل المصطفين.

فى آية واحدة.. ثلاث حركات متتالية.. وهائلة وواعدة..

فى آية واحدة جمع بين أمرين.. ونهيين.. وبشارتين تدرُّج معجز.. ومتتاليات محكمة مقدرة.

تركيز لأداء ترسم فيه الحركة جيدا.. وينضبط الأداء.. وتتفاعل المشاعر داخل الصدر وفى العمق.

إيقاع منتظم.. صعب المنال دونه جهد وتدريب وإيمان عميق.

يبدأ فى القمة من أجل الخوف على الرضيع نلقيه فى النهر - أعلى مراحل الخوف والرجاء والتعلق بوعد كريم، كل هذا التباين فى الانفعالات محصور ومجتمع فى لحظة واحدة.. وفى قلب أم ملهوف.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص - ١٠).

ضمادة العلاج والشفاء.. ومعجزة التصوير بالربط على الجرح والنزيف.. خوف ولوعة حارقة بالقلب ويد الله تربط وتضمد. ويستعين الإنسان بالله فى الشدة يقوم بالعمل بأقصى جهد وطاقة وسعة.. ويولى وجهه شطره ويثق بالنتائج. وتتيقظ العزيمة تنطلق قوى الاحتمال.. يجىء الأنس بالله.

تدخل علاجى سريع.. تفاعل كيميائى مثير. تهدئة عملية الاحتراق الداخلى وحشد لقوى المقاومة بثبتنا الله بالقول الثابت..

ويقص علينا من الأنباء آيات بينات وعبرة لنا ودعـوة للتأمـل والمعرفـة والالتزام.

ويأن نختار طريق الصلاح والعمل الصالح فهو غاية الخلق. . وحكمة التنزيل. . ومتعة الحياة والمعيشة الطيبة الراضية ورصيدنا فى الآخرة.

آيات كونية محيطة بنا. . آيات ومعجزات. . وحسابها وإعجاز حركتها وتعاقبها ودورانها دعوة للحب والتأمل والتوحد.

آيات مبصرة ويجعلها الله بصائر لنا وشواهد ثاقبة وعـلامات دقيقـة محسوبة ومفصلة. . نورا ورحمة وبشرى قائمة. .

وإن نعد نعمة الله لا نحصيها. .

فى ست آيـات يجيء تسلسل الآلاء والنعم. . وعـلى سبيـل المثـال لا الحصر. . تتابعها وإيقاعها وأركانها الحادة البارزة ربما لتلفتنا بشدة. . تجذب انتباهنـا بقوة تجعلنـا نتأمـل ما بـأيدينـا وما يحيط بنـا. . نستثمر حساباتنا. . ونعيد إعلاء رصيدنا من الخير والحب والنفع العام. . ويجعلنا نأخذ ما آتانا بقوة.

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنهَـارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم - ٣٢، ٣٣)

الأرض والسماء والمطر. . وإحياء الأرض بعد موتها وإخـراج الثمرات - آيات بينات هكذا البعث والحياة والنشور - ماء المزن وعيون

السماء.. الماء الطهور يخلق منه كل شيء حى والبحار والأنهار، وصنعه الفلك على عينيه ولتجرى فى البحر بأمره وحركة الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار، وتعلم عدد السنين والحساب.. ودورات الزمان.. الصورة البعيدة المهولة آيات شاهقة مبينة وبليغة وقائمة والصورة فى تفاصيلها الدقيقة آيات بينات معجزة..

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل - ٦١)

ثلاثة مستقيمات..

بحران وبينهما خط نورانى - هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج. حاجزًا منيعًا صلبًا فاصلاً يجعلهما لا يبغيان.. خط شفيف رهيف غير مرئى ولا موجود لكنه قائم بالأمر. يختلفان ويتشابه جوفهما فى النعم واللآلىء والطعام والرزق وابتغاء الفضل والسفن التى تجرى وتحملنا ومتاعنا إلى آفاق بعيدة.. ومعالم مترامية الأطراف.

هذه الصورة الساطعة.. التى تنبض حياة، وتمور بالحركة وتقوم على النظام والحساب والتسيير الدقيق.. لها شأن آخر يوم القيامة.. وصور نقض الحياة مذهلة.. مبدعة.. مروعة..

وعلينا أن نتأمل الآية فيها وعمق الصورة والمعجزة

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر - ٦٧)

سبحان الله والحمد لله - سيرينا الآيات لنعرفها

﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل - ٩٣).

ستظل الآيات شاهدة مبصرة مضيئة.. تمد إلى غيب المستقبل وكل حين نكتشف المزيد منها وتبهرنا وتغمرنا بنورها وتزيدنا إيمانا مع إيماننا سبحانه.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ (الحشر - ٢٤).

بناء محكم.. فصلت آياته.. وتسامت معجزاته.. نظام مبدع مشع له نفاذ وحضور. تدرج معجز وبيان مذهل.. وشحنات من المشاعر والتفكير المتجدد المستمر..

فى سورة الضحى دورة الحياة كاملة.. تسع بدء الرسالة وتنبه الذهن وتبعث على الاطمئنان.. وتمتد إلى وعد مترع بالود والقربى والحنان - ومشهد تمام النعمة والعطاء. تدرج ثلاثى الحركة والمرحلة والنغم يصدح إلى أعلى الدرجات، ويصل إلى وجوب الشكر والتحدث بأنعم الله.

بناء نورانى ومتاح.. يضع العالم كله بين أيدينا وبأيماننا.. وحدة كونية تضمنا.. تلفنا مع دورة الزمان وتعاقب الليل والنهار.. نشهد معجزة الخلق والبعث ويجىء النهار مبصرا.. ويغشانا الليل مسدلاً وأمنًا. تبدأ بقسم عظيم:

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى - ١، ٢)

كان الرسول عليه الصلاة والسلام فى شوق إلى الوحى.. بعد أن اشتد عليه وضمه إليه وقال له ﴿اقْرَأْ﴾ تركه فترة.. ففاض الشوق بالرسول. كان قد اطمأن قلبه وعرف أنه الحق من ربه.. وأنه مكلف بالرسالة.. وكان فى أتم استعداد وقابلية لتتم ما بدأ معه..

وطال به الشوق والانتظار - وقيل إن الله قد هجره وقلاه.. ونزلت الآيات مشعة مطمئنة.. مترعة بالبشرى ومشرعة بالوعد.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى ٣ - ٨)

استفهام لتقرير الحال.. كيف يبعدك الله ويتخلى عنك وهو قد أحاط بك وأنزل محبته عليك فأواك جدك بعد موت أبيك.. وضحك عمك بعد وفاه أبيه..

وهكذا أسبغ عليك الله سبحانه المحبة والرعاية وحماك من مظاهر الشرك والضلال - فلم يسجد لصنم - وكان الرسول فقيرًا.. فأغناه الله وربحت تجارته وذاعت كرامته وصدقه وأمانته.. فكان الثراء النفسي والعزة وأحاطه التقدير والاحترام.

ثم يصدر الأمر المحبب للنفس.. أمر بأركان ثلاث.. تقيم جوهر الإنسان.. وتجلي إنسانيته وتثري حياته وعمله.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى : ٩ - ١١)

العناية باليتيم واحتضان الجماعة له والتكفل به وعدم قهره وإذلاله فيه إقامة للمجتمع نفسه وترابطه بصيغة الحب والتواصل بدل شحن النفوس بالحقد والمذلة.. وتتعرض بذلك الجماعة للفرقة والانقسام.

ومن يسأل عن حق أو معرفة أو يطلب إصلاحًا أو إرشادًا.. فمن حقه

الاهتمام وتقديمه المساعدة والحق المطلوب دون أن ننهره . . أو نصم آذاننا عنه ونبدى عدم الاهتمام . . ولنتحدث بأنعم الله ونشكر ونجعلها تعم على الجميع .

وتجىء الدعوة على أسس ثلاثة .

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل - ١٢٥)

الدعوة بالحكمة وإقامة الحجة والبراهين والأدلة العقلية ورد كل المظاهر والمعضلات إلى الله والموعظة الحسنة تكون لعامة الناس والبسطاء . . تقنعهم النصيحة وبيان أوجه الخير واستقامة القصد والنية .

والجدل بالحسنى أيضًا لطبقة المجتمع التى هى بين الصفوة والحكماء والعلماء وبين البسطاء الذين تكفيهم الموعظة والنصيحة . . فهؤلاء لابد من الجدل والنقاش ومحاولة الإقناع . . نوعية صعبة وعسيرة ولكن الصبر على المجادلة والنقاش يسهل المهمة .

ياسبحان الله . . هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة حقًّا . . كل شىء بقدر . . ونسق جميل . . وترتيب رائع . . وبيان فصيح . .

وتنطلق قاعدة الإيمان الأساسية من اليقين بالآخرة . . - ذلك يحوى كل الأسس - الإيمان بالغيب والتوحيد والتنزيل - والمؤمنون هم :

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (النمل-٣)

ومزيد من الوصف لهم وتصويرهم من أعماقهم وداخل جوفهم المشع

بنور الإيمان.. بآيات ثلاث:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال - ٢)

وتتكرر وتتأكد دوما آيات المؤمنين.. وبتحديد مركز ومكثف ومحيط بالمؤمنين وبإيقاع متكرر عذب ومطمئن.. وترديد بدعائم بنيانه العظيم هم دائما - الذين يتلون كتاب الله.. ويقيمون الصلاة.. وينفقون مما رزقهم سرًّا وعلانية.

ويمن علينا بدورات مكثفة.. منسابة.. صادحة تحدد قمة الإقناع وارتفاع المشاهدة وقاعدة التثبت والإحاطة.

- الكتاب تنزَّل مباركًا.. ولنتدبر آياته.. ولنذكر ما فيه.. ونزل بيان للناس وهدى وموعظة.. وقرن الكتاب بالحكمة والعلم والفضل.

ينير عقولنا سبحانه بهزات مترفقة.. تنبهنا إلى قوة البيان والبرهان ووضوح الآية. - من يجيب المضطر.. ويكشف السوء.. ويجعلنا خلفاء الأرض - من جعل الليل لباسًا، نكن داخله.. وجعل النوم سباتا، نغيب فيه ونسلم أنفسنا إلى الله تتجدد خلايانا وتشحن قدراتنا، ثم نبعث من جديد ويجعل النهار نشورًا لنا - آيات مجتمعة على الانفاق.. ثلاثية الحركة أيضا والوزن والإيقاع.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ (البقرة - ٢٧٢)

الإنفاق فى سبيل الله وفى أوجه الخير.. هو خير للنفس وزاد تقوى.

وميراث. . والإنفاق ابتغاء وجه الله، ووسيلة تقرب منه ومحبة، ويسميه سبحانه «قرضًا حسنًا لله» وننفق وهو يعود علينا بالرضا. . برفقة المجتمع. . بتآلف قلوب الجماعة. . بالتقارب والمحبة. . فهو خير يعود إلينا مضاعفًا فى الحياة الدنيا والآخرة.

وتشبيه أخاذ على حركة الإنفاق تشير إلى التعقل والتوازن والاعتدال والحكمة فى الإنفاق. . - فلا نجعل يدنا مغلولة إلى أعناقنا. . ولا نبسطها كل البسط. . ونجعل بين ذلك قوامًا - إنه أداء ثلاثى صامت معجز ومعبر وبالغ الدلالة والإقناع.

ويخاطب الرسول ﷺ - وهو الرحمة المرسلة - يؤكد له الخطوات المنظمة لسريان المودة والرحمة.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران - ١٥٩)

ودائمًا القرآن يخاطبنا كأمة. . يطلب منا تآلف القلوب والوقوف صفًّا ويسلمنا طوق العبور ومثلث النجاة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران - ١٠٣)

يوصى بأمة وسطا. . وخير أمة أخرجت للناس. . يكون منهج العمل فيها محددًا. . واضحًا. . حاسمًا. . كى نضمن النجاح والفوز والتقدم. وهى آية بينة نحن فى حاجة إليها ولا يمكننا هجرتها والتخلى عنها. . تنادينا

جمعًا.. توحد بيننا وتجمعنا على قلب واحـد.. وفكر واحـد.. وعقل مستنير.. وهدى وبشرى ورحمة.

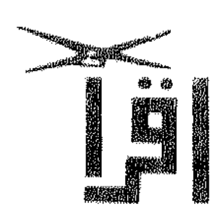
﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران - ١٠٤)

فهــرس

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٢٩٠٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3640 - 3	ISBN

١ / ٩١ / ٤٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



الإسلام دين الحق ويعلمنا الله أنه أنزل «الكتاب» بالحق والميزان.. بدأ قرآنه المجيد سبحانه بـ﴿اقرأ﴾.. وبعد آيات قصار ثلاث ﴿علَّم بالقلم﴾ أى أن ننقل العلم لكل الناس عن طريق القلم.. ليسكن فى قلوب الناس. وبسمعهم وبأعينهم وبصدورهم وبذلك تصح حركتهم وجهادهم وعزمهم وتتألق أعمالهم.

«اقرأ.. وعلم بالقلم.. ومايسطرون» تلك هي رموز حياتنا فى رحلة الأيام..



